IBRAHIM SAMUEL

إبراهيم صموئيل

المنزل ذو المدخل الواطئ

إبراهيم صموئيل

المنزل ذو المدخل الواطئ

إلى روح أمي التي وشمت روحي

حَواء

لأوّل مرّة في حياتي كلّها ، قبل زواجي من زياد وبعده ، أشعر أنّ لي قلباً ، وأنه يمكن أن يتوقّف ، فجأة ، عن الخفقان ، وأن بإمكانه أن يقفز من صدري ويفرّ هارباً مني ، تاركاً إياي أواجه قدري ، وحيدة ، عزلاء ، أمام امرأة تقول لي من خلف مكتبها بلطف بالغ ، ولكن بنبرة باردة ، حياديّة ، لا قلق فيها ولا تحرّج :

«والآن . . . تفضّلي معي ، واختاري» .

لأول مرّة سأشعر بأنني سعيت ، بنفسي ، نحو حتفي . وبأن استيائي بداية ، وتذمّري فيما بعد ، وشجاراتي مع زوجي التي تلت وتكرّرت -في السنوات الأخيرة خاصة- وصارت بيرقاً مرفوعاً فوق رأسينا ، يدل الجيران والأقرباء علينا ، ويفضحنا بينهم . . . لن تعدو أن تكون خطوات حثيثة ، عازمة ، مشيتها ، ودفعته ليمشيها معي ، نحو حدّ المقصلة الذي سيلتمع على مرآى من عينيّ ، فوق رأسي ، ثم يهبط ، رويداً . . رويداً ، نحو عنقي حاملاً إليّ خيبة الخذلان!

سأعرف ، متأخرة ، أن ملجأي الذي لجأت إليه هو

مقتلي . منه ستخرج الطلقة الأخيرة نحو تأبّيَ الحرون لتنتزع منه مكابرته وعناده ، ولتطفئ فيه البصيص الذي نجا من وابل طلقات اليأس .

قبل ذلك ما كنت لأستسلم لحقيقة أنني عاقر . ما كنت أرضى لنفسي . لم يهنّي عقم رحمي . . أهانني الإقرار به ، فسعيت ، بكل ما ملكت ، لمقاومته : غيّرت الأطباء المعالجين ، نوّعت الأدوية ، بدّلت المشافي ، أنفقت المال الذي معي ، واستدنت لأنفق المزيد منه ، وحين وهن عنادي قوّيته بالأدعية ، وتعليق الحُجب في ثيابي الداخلية ، وابتلاع سوائل القوارير الصغيرة العامضة .

كان مرّاً عليّ ، مرارة الاندحار ، أن أقبل بحالي . أن أنسحب من المعركة مع القدر الذي خصّني بالعقم . أن أرى بطون النساء حولي منتفخة مثل هضبات خضراء ، وأنا مجوّفة مثل جحور الأفاعي ومخابئ الضباع . مجوّفة من شهور الانتظار ، ووجيب الترقب ، ولألأة الدهشة ، ومن تلمّس الجسد الوليد الغضّ ، كوريقات النعناع ، وتشمُّم فوحان حليبي من مسام طراوته .

سأسعى كثيراً قبل أن أمشي على ذلك الدرب ، درب الجلجلة الذي كان ينتصب ، في نهايته ، صليبي . سأنهمك بالحمل من زوجي ، وسأنهك برجاءاتي أن ينام معي يوماً ، بعد

يوم ، بعد يـوم . أرجـوه أن يعـاود فـي الصبـاح ، عنـد الظـهيرة ، داخـل الحمّـام ، أتوسّـل إليـه أن يوقّـت معـي اليـوم والشـهر والساعة . وسأرهز ، وأنا تحته ، وأتلـوّى ، وسـأطبق بذراعـيّ علـى ظـهره ، وأشـدّ . . أشـدّ داعيـة اللـه والملائكـة والقدّيسـين أن يستجيبوا ، ولو لمرة واحدة . . سأشدّ إلى أن يزهـق منـي ، وينفـر من عنادي ومكابرتي بالمحسوس ، وأنفر من نفسي ، أنفر منّي وأنا مستلقية على ظهري ، أختلج ، كالممسوسة ، من حلمـي بجنـين يكـبر فـيَّ ويكـبر ، يلبـط بطنـي بقدميـه الصغـيرتين لبطـات تُخرجني من كهف اليأس الذي أعيش فيه .

ورغـم هاويـة الجنـون التـي وصلـتُ إلـى حافّتـها جـراء كوابيس مناماتي التي كنت أراه فيها يدبّ على ساقيه ، متعثّراً ، فأهرع إليه أناغيـه ، وأقبّـل شـفتيه المنفرجتـين عـن سـنّ صغـيرة بيضاء ، وخيط رفيع ، لامع ، من رضاب شـهيّ . . أو كنـت أنـهز من نومي ، على صوت بكائه ، وأسارع إلى تفقّده ، فأرتطم بليـل معتم ، بارد ، لا دبيب فيـه ولا رضـاب . . . رغـم جـرف هـاجس الجنـون هـذا ، فقـد ظلّـت فـيَّ ذبالـة مـن أمـل . ذبالـة تنـوص وتنوص ، لكنها لا تنطفئ .

وظلّتْ كذلك ، إلى أن جاء أخي باقتراح دلّنـي بـه علـى درب جديد :

ولِمَ لا تتبنّيـان طفـلاً؟ وليـداً صغـيراً يصـير ، مـع الأيـام ، ابنك؟

راقت الفكرة لزوجي ، وراقت لي أيضاً ، بل وشعرتُ ، لحظتها ، بأنني طوال الفترة الماضية ، كنت أكابر بالمحسوس فعلاً! أصارع وهماً آملة الانتصار عليه ،أو كأنني كنتُ أسعى ، في دروب مغلقة ، للوصول!

وفي خلواتي مع نفسي ، التي تلت اقتراح أخي ، راحت الفكرة تتلوّن في قلبي ، وتُلوّنه ، مثيرة فيّ الدهشة منّي : لِمَ يحدث حقاً أن يلوب المرء ، أحياناً ، بعيداً جداً ، في السبل الوعرة ، عمّا يرنو إليه ، فلا يرى ما هو لصيق به ، في متناول يده؟!

وليلة بعد ليلة ، ملأ طيف الطفل سريري ، وغرفتي ، وعتمتها ، ودفّأ حضني الأجوف الذي كثيراً ما كنت أملؤه وأدفّئه بوسادة أمسح عليها ، وألاعبها ، مربتة على ظهرها لتكفّ عن البكاء ، وحين كانت تتمادى ، كنت أبعدها عنّي ، وأركنها جانباً لترتدع وتطيعني ، فتطوع ، ولا يبقى من بكائها غير شهقات خفيفة ، متّصلة ، تُذيب قلبي ، فأضمّها إلى صدري ، وأحنو عليها ، ماسحة دموعها ، ودموعي ، إلى أن نغرق ، معاً ، في نوم عميق .

فيما بعد سأعرف أنني خسرت الوسادة ولم أكسب الطفل .

وفيما بعد سأعرف أن الدرب الذي اقترحه أخي ،

ومشيت عليه حتى نهايته ، كان أكثر وعورة من كلّ الدروب والسبل التي سلكتها وحاولت فيها . حين سنجهِّز أنا وزوجي كلّ الوثائق المطلوبة ، ونجمع التواقيع الرسمية على أوراقنا ، ونحصل على الموافقة النهائية ، ونتّجه إلى المعهد ، ونلتقي بالمشرفة عليه ، وتقول لي بنبرة هادئة حيادية ، كأنها حكمُ قضاءٍ مبرمٍ :

«والآن . . . تفضّلي معي ، واختاري» .

حين سننهض ، ونسير خلف المشرفة ، في الممرّ الضيّق للمعهد ، ويدهمني ، لا أدري من أين ، رعبٌ لم أجرّبه من قبل ، رعبٌ غامضٌ ، مشوّش ، يدفع بقلبي للفرار ، فأتأبَّط ذراع زوجي ، وأجرّ ساقيّ جرّاً ، كأنني مسوقة عنوة إلى المقصلة!

لم يراود خيالي أن المشرفة حين ستفتح باباً كبيراً ستهبّ منه رائحة أرحام كثيرة ، مختلطة بعبق أجساد وليدة ، وزعقات رفيعة ، متماوجة ، حادة ، يعلو بعضها ، ويئن بعضها ، متدفّقة كهياج حقل من عصافير .

لم يراود خيالي أنني ، ما ان أدلف ، حتى أغرق في أمواه من عيون صغيرة ، تشعّ ، وترنو نحوي ، لهوفة . . وفي سلاميات ، كحُبيبات الكرز ، تنشدّ إليّ متشوّقة لملامستها وضمّها . . وفي أقدام بالغة الصغر ستدبّ وتحبو فوق الأسرَّة كسلاحف وليدة ، لتتطاول على أطرافها توّاقة للوصول إليَّ . .

وأنني سأتحوّل ، في ومضة ، إلى أمّ لكل واحد من تلك العصافير ، طالما انتظرها طويلاً ، طويلاً ، وعادت للتوّ!

ومن الثلم الغائر بين عقمي العقيم ، وحلمي الذي شخص آنها ، انبثقت أمومتي وتدفّقت . . ومعها ، راحت تهبط المقصلة نحو عنقي ، رويداً رويداً ، لا لتقطعه ، بل لتضغط عليه فحسب ، تضغط عليه وتخنقني ، فأحار ، وأنا أرفع بنتاً صغيرة هنا كانت تصرخ ، فكفّتْ . . وصبيّاً هناك كان يحبو ويتعثّر ، فاستراح . . فيمن سأختاره وأضمّه إليّ ، وفيمن سأخذله فأتركه للسرير!

ورحت ، أنا التي ذلّتني سنوات اشتهائي لطفل واحد ، أتخبّط في هياج بحرهم حولي : أهرع نحو رضّاعة طفل سقطت فأعيدها ، وإلى وسادة آخر أكبّت على وجهه فأرفعها ، ونحو لاجئة إلى صدري فأضمّها إليه ، وإلى متشبّث بأطراف ثوبي فأحضنه ، وإلى آخر وآخر وآخر . . ممن كانوا يندهون لقلبي الذي وهن من تسابقهم إليه وانهار .

وما كان لي أن أعرف أن حتفي يتربّص بي خلف الباب ، حين سأغادرهم جميعاً ، خاوية ، عزلاء ، وحيدة ، لا أنا أحمل طفلاً منهم ، ولا أنا بقادرة ، بعدُ ، على ضمٍّ وسادة محشوة بالقطن لأهدهدها كلما بكتْ ، وأهدهد روحي المدحورة كلما أنَّتْ .

شريط الورق

ما كان في برنامجنا الأسبوعي (وقد كنّا نرسم مخططات لكل أسبوع على حدة) أن نخوض تلك المغامرة! بل هي لم تخطر لأحد منّا -نحن الذين سمّينا أنفسنا : عصابة الكفّ الأسود- على بال يوماً . فبرامجنا كانت تنحصر في تسلّق صخور جبل قاسيون . . أو إقامة ما يشبه مخيّماً في أحراج «دمّر» . . أو معاودة غزو بساتين «جوبر» لسرقة مشمشها وتفاحها رغم لسع خيزرانات أصحابها . . بل نحن رسمنا وغيّرنا ، سطّرنا ومحونا ، جمعنا وطرحنا للمغامرة الكبرى ، تلك التي سيخادعنا الزمن فنشبُّ ، ونودّع يفاعتنا ثم نتفرّق من دون أن ننجزها أبداً : السفر من دمشق إلى البحر مشياً على الأقدام!!

أما تلك اللعبة الشيطانية فقد ابتكرتها لنا المصادفة البحتة ، وورّطتنا بها ، ثم أوثقتنا إليها ، إلى أن صارت هاجساً في رؤوسنا ، وبديلاً جاهزاً ، سهلاً ، ما وقعنا في عجز الاختيار مرة إلاّ وصاح أحدنا : «ما رأيكم بشريط الورق؟!» فتنهز منّا نظراتٌ محمومة ، ماكرة ، كذئاب فتيّة على مرمى فريسة ، ونحن نصيح : «صحيح والله . . . كيف نسيناها!!» ثم نرمح ،

والشريط معنا ، إلى الشوارع ، متقافزين ، بدافع اللذّة الموعودة ، كحبات برتقال تتدحرج نحو السفح!

يومها ، كنّا نلوب في شوارع «البحصة» حين أدارت رؤوسنا زمامير قوية ، متصلة ، فالتفتنا لنجد سيارة بيضاء ، فارهة ، مزيّنة بالأشرطة الملونة والورود ، تشقّ الشارع كعروس ، فيما تلحق بها سيارات كثيرة يزغرد ركابها ويهلّلون .

لحظة وقفنا لنتفرّج ، انفلت ، من عزم السرعة ، شريط أحمر من السيارة العروس . تلوّى في الهواء لثوان ، ثم اضطجع على الرصيف ، قريباً منّا . هجمنا عليه ورفعناه ، ثم انتحينا ، متحلّقين ، نتملّى به!

كلّ الوقائع الليليَّة ، المثيرة ، التي ولّدتها سيارات مشابهة في خيالاتنا ، أو بحلقت فيها أعيننا في بعض الأفلام ، راحت تنثال على الشريط وتتبدّى! رحنا نمرّ بأصابعنا المرتجفة ، على سطحه اللّمّاع ، الأملس ، المتثنّي ، فتسري من سلاميات أصابعنا إلى أطراف أقدامنا ، مويجات تبدأ خفيفة ، ثم تنشط وتحتدم وتفور ، فتخضّنا خضّات متتالية تقطّع أنفاسنا وتجفّف حلوقنا ، مبدّدة من حولنا المحلات ، والناس ، والأرصفة ، والشوارع ، والضجيج . . .

أأراد أحمد أن يستأثر بالشريط السحري حتى نتره من ايدينا وكاد يهرب به؟ ربما . غير أنّ ما حدث هو أنْ التفّ

الشريط حول شجرة وعمودين رخاميين قاطعاً الرصيف ، وحاجزاً بين الذاهبين عليه والآيبين .

في قلب اللحظة تلك ، كوميض خيزرانة البستاني ، ومضت الفكرة الجهنمية في رؤوسنا . وتجسّدت!

من فورنا ، وكأننا على اتفاق مسبق ، عمدنا إلى ربط نهايتي الشريط بين شجرتين وعمودين متاخمين لمحل ملبوسات ، فشكّل مربّعاً خالياً من المارة .

هرعنا إلى الرصيف المقابل لنراقب ، بانتباه بالغ ، نتائج اكتشافنا هذا!

كان المشهد مثيراً بأكثر مما توقعنا :

المارة اللاّهون بالكلام كانوا يتسمّرون ، في اللحظة الأخيرة ، عند تخوم الشريط ، مقوّسين أبدانهم ، كأنهم على شفا حفرة ، ثم يتراجعون عنه بخفة خشية مسّه . وآخرون كانوا يتريثون أمامه لحظة ، مرسلين نظراتٍ استطلاع إلى أعالي المباني وحولهم ، ثم يرفعون أكتافهم حيرةً وهم يلتفّون عنه ماضين في طريقهم . والذين على عجلة من أمرهم أظهروا استياءهم وتذمّرهم بتشويحات من أيديهم وهزّات من رؤوسهم من دون أن يخالفوا غيرهم في المباعدة بينهم وبين الشريط . بل حدث أن رأينا شاباً يهرع إلى امرأة عجوز تكاد تدهم الشريط ، فينبّهها ، آخذاً بيدها ، ودالاً على كيفية تجاوزه بسلام . وكذا لفتنا زعيقُ امرأة تفزع إلى

طفلها الذي حاول التسلّل من تحت الشريط ، فتجذبه إليها ثم تضمّ كفها إلى صدرها ، وتسرع مبتعدة ، وهي تتخطّف نحو الشريط نظرات عجلى كأنها لا تصدّق نجاء ولدها منه!!

ما لم نصدّقه هو : كيف نجحت لعبتنا ، ولم يُفتضح أمرها!؟ إذ ان نظافة واجهة المحل ، المجاور لمربع شريطنا ، ولمعان بلّوره ، وكذا خلو الرصيف من أية حفرة أو كومة تراب أو عمّال أو آلية إصلاح . . . . أوقع في ظنّنا أن عمر اللعبة سينقصف بعد ساعة من الزمن أو أقلّ . بيد أنها عاشت وعمّرت! تصديق الناس وتصرفاتهم أحياها ، وجمّلها ، وأمدّ في عمرها . . بل وجعلها اللعبة الأشهى لدينا!

وللحقّ ، فقد خبلتنا اللعبة . طيّرت عقولنا ، فلم تعد تغرينا لعبة أو رحلة أو مغامرة أكثر من لعبتنا هذه . بشرٌ من لحم ودم ، كباراً وصغاراً ، رجالاً وشباباً ونساءً ، فتياناً ومسنّين . . . . كلهم طوع لعبتنا نحن . طوع شريطنا الورقي المرفرف اللّماع : يزيحهم عن الرصيف ، فينزاحون . يفصل بينهم ، فينفصلون . يعترضهم ، فيلتفّون . يباغتهم ، فيجفلون ويتسمّرون محاذرين مسّه! لقد صيّرنا الشريط ملوكاً متوّجين . سادة الأرصفة ، والزوايا ، والحارات . فكنا نتعانق ، ونصفق كفّاً بكفّ ، منقلبين على أقفيتنا من الضحك بين مصدّقين ومكذّبين من أننا استطعنا ، مع كل هؤلاء ، أن نفعل هذا!

ومن خبْلنا عشقاً باللعبة ، طفقنا نطوّر طرائقها ونتفنّن بها . فأحضرنا شرائط فسفورية لساعات الليل ، انتقينا الشوارع المزدحمة ، نقاطَ العبور الضيّقة ، بعض الحارات القديمة ، واهتدينا إلى زوايا خفيّة هنا وهناك لنفجأ الناس ، ونتلذّذ بانفعالاتهم واستياءاتهم وتحايلاتهم على الشريط المنصوب .

ولا ندري ماذا أصابنا!؟

فكلما عانى المارة من عرقلة شريطنا لهم ، ازدادت حميتنا لعقده في طرقاتهم ومعابرهم! وكلما انصاعوا للعبتنا وانكووا بها ، فاضت شهيتنا لصوعهم وكيّهم! حتى اننا ، في فصل الشتاء ، رحنا نتصيّد الأرصفة التي تجمّعت المياه على حوافّها ، فنعقد الشريط لننتشي بمشهد رجل يرفع ولده على كتفيه ويخوّض في المياه مبتعداً عن الحاجز ، وامرأة تخلع حذاءها وتعبر ، ويافع يشمّر عن ساقيه النحيلتين ويجوز ، وشاب -بعد تلفّت حائر- يغامر بالانتقال إلى الرصيف المقابل متحمّلاً رشق السيارات له وشتائم السائقين .

وما رقّت قلوبنا ، ولا أخذتنا الشفقة بأحد يوماً ، وحتى حين حاول خالد أن يثنينا ، إثر تعثّر عجوز وسقوطها أرضاً ، فقد زعقنا ، متعاضدين ، بوجهه ، ثم فصلناه عن مجموعتنا عند أصرّ على رأيه وظلّ على عناده!

ما لم نتوقّعه ، أو نفطن له إطلاقاً ، أن تموت لعبتنا بين ليلة وضحاها!

لم تقتلها عصيُّ أصحاب المحلات التي لاحقتنا أكثر من مرة . . ولا لَبْط أقفيتنا من بعض الرجال العابرين ونهرهم لنا . . ولا كذلك تهديد شرطي -كان ضبطنا- بسوقنا إلى سجن الأحداث . . ولا أي نهي أو زجر أو ضرب من أي نوع كان ، إذ أن متعتنا ، إلى عنادنا ، كانا أقوى!

ما خلخل لعبتنا ، ثم صدَّعها وهدمها تماماً ، إحساس غريب انتابنا ، لم يصب يفاعتنا من قبل ، ولا أُهمدت نارُ حميّتنا به ، وهو أن مختلفاً ، مثيراً ، جاذباً لنا ، ومجدّداً لاندفاعنا ، لم يحدث قطّ!! قطّ لم يتغيّر المشهد : المارة الذين حاذروا ظلّوا محاذرين . . والذين استاؤوا ثم التفّوا ظلوا يلتفّون مستائين . . والذين شمَّروا ما برحوا يجوزون الطريق مشمّرين . . . . بحيث باتت لعبتنا مثل أسطوانة مخدوشة ، أو شريط سينمائي بعينه ، تتكرر مشاهده وتُعاد أحداثه أمام أعيننا ، إلى أن ألفينا أنفسنا في مرة -بعد أن عقدنا الشريط وركنّا لنراقبه- ننخرط ، وبُعيد لحظات فقط ، في حكايات وأحاديث شتى مما لا يمتّ إلى ما نحن فيه ، ناسين الشريط المعقود والناس وما يجري ، باحثين مفتّشين عن لعبة أخرى تخلّصنا من هذا الشعور الغريب ، شعور السأم البليد الذي أناخ علينا من هذه اللعبة!!

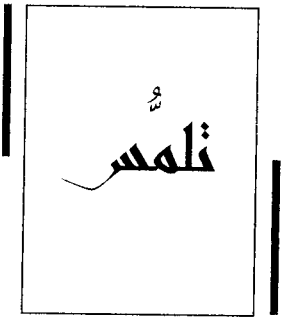

تلمسُ

أفزعني أن يتجرأ إلى هـذا الحـدِّ فيعـرض علـيَّ ، دون أية مواربة ، أن نختلي معاً في ركن من زوايا المعهد!

أفزعني وأربكنـي فـي آن ، لأن حديثنـا الـذي كنـا فيـه ، ونحن نقف متجاورين في الباحة ، لا يمت إلى طلبـه بصلـة ، ولا يُمهِّد له ، في حين جـاءني صوتـه مطمئنـاً ، مبتـهجاً ، لا يغـصُّ بقلق أو يرتعش من تردّد ، لكأنه استشعر ، مـن رفقتنـا الطويلـة ، رغبتي الدفينة في أعماقي ، وتحايلي الدائم للتكتّم عليها ، فجرؤ على البوح الصريح بما أخشى الإلماح له ، أو الإشارة إليه!

وفيمـا أجَّلـت الـردَّ علـى طلبـه بتسـاؤل غـامض لا يعنـي شيئاً ، كمن أُقظ من سباته علـى خـبر مثـير : «هـا!؟» . . . سـارع إلى تنبيهي لقرع الجرس ، وعزمه على التوجّه إلى الصف!

من توقيع حذائه المتنـائي أدركـت أنـه ابتعـد ، فمكثـت ، حيث كنت ، متكئة إلى الجدار ، كأنني أنتظر رداً منه ، أو أُمـهل نفسي لتصدق ما سمعتْ ، وبعدها ، أرفع يـديَّ أمـامي وأخطـو ، متلمّسة ما حولي ، وماضية ، في إثرهما ، نحو الصف!

لا أدري تماماً كم بقيت ماثلة في ذهول هكذا ، أستعيد نبرة صوته ، وأنا أفكّر في طلبه المباغت ، وفي المشاعر المتقلّبة التي راحت تخضّني خضّاً ، لا من صراحته ، ولا من افتضاح رغباتي الخبيئة نحوه ، تلك التي طالما جاهدت للتستّر عليها ، بل من حالنا الأبدي في كوننا كفيفين!

فإذا ما أكسبني كفُّ بصري ، الذي لازمني طوال سنوات صباي وشبابي ، معرفةً دقيقة بمشاعر الناس مهما حاولوا إخفاءها بتلوين نبرات أصواتهم ، وتليين لمساتهم . . . فإنه ما كان له أن يُعْلمني بوجودهم أو غيابهم من حولي . . بقربهم مني أو بعدهم عنّي ، إذ ظلَّت تفصلني عنهم ، على الدوام ، مسافات من الظلمة الحالكة التي لا أقوى ، أبداً ، على قطعها . لا أقوى إلاّ بهمسة شاردة تقع في أذني ، أو نحنحة تصدر ، أو نأمة تندُّ ، فأتنبَّه وأدرك ، وسوى ذلك لا شيء . لا شيء أبداً . فكيف لي ، في غياهب عتمتي هذه ، أن أمضي معه؟! كيف لي أن أختار لخلوتنا مطرحاً ، وأتبيَّن الأمان فيها؟!

ولكنْ . . . هل قبلتُ حتى تراني الآن أشرع في البحث عن طريقة للاختلاء معه!!

نعم! لن أكذب على نفسي! فما باغتني ، حقيقة ، لم تكن رغبتُه ذاتُها ، وإنما الإفصاح عنها فحسب ، إذ طالما استشعرتها من قبل . عشرات التفاصيل الصغيرة أوحت لي بها :

ساعة كان يناديني ، وأخطو على صوته إليه ، فإذا ما حاذيته -وأدركَ ذلك لا بدّ- أرسلَ أصابعه لتتلمَّسني قائلاً بذريعة عدم رؤيته لي : «وصلت؟»! مبالغاتُه في الحرص عليَّ أثناء هبوطنا الدرج ، وإصرارُه ، في كل مرة ، على الإمساك بكفي! انحرافُه في مشيته ، على حين غرة ، والتصاقُ صدره بنهديَّ ، ثم ارتداده مع اعتذارات مرتجلة مرتبكة ، كالصبية الصغار! اندفاعُ يديه ، والتفافُهما حول جسدي ، لأقلّ عثرة تصيبه ، لا ليحمي نفسه من سقوط ، بل ليهنأ بضمّي إليه! ولعلّي لا أنسى ما حدث مرة ، وأماتني من الضحك ، حين زعقت مخبرة إياه بأن قدمي قد جُرحتْ ، فسارعت كفّاه إلى تلمّس وجهي وكتفيَّ وصدري ، وهو يسأل بنبرة الملهوف : «أين؟! أين؟!» .

من كلّ رسائله الخاطفة تلك ، كنت أحدس برغبته ، بل وكنت أقدّر أنه ، في يوم ، سيطلب مني ما طلب ، حتى بتُّ ، في الفترة الأخيرة ، أتوقَّع أن يفعل دون طلب ، ومهما كانت النتائج!

أتراني أُضخِّم رغبته إلى حدِّ الجنون . . . أم هي رغبتي المجنونة المتدارية بالتمنّع!؟ رغبتي في أن أزيح العتمةَ المقيمةَ بظلال خلوة ، وأعبر النفق الطويل بيننا إلى وميض أصابعه وشفتيه وأنفاسه وهي تُلهِج بجسدي وترعد فوقه؟!

ما استطعت فضَّ حالي من حاله ، فوجدتني أعكف على تدبّر سؤال واحد : كيف سنخرج من عتمتنا ، ونختلي بعيداً عن الآخرين؟ وحين لم أعثر على معبرٍ ، أو مسرب ، تركت المهمة له ، ورحت أنتظر . .

كانت قد مرّت ثلاثة أيام على طلبه ذاك ، ساعة خرجت من الصف لأُفاجأ بصوته أمام الباب بانتظاري!

أمسك بيدي ، شدّني منها وهو يقول : «تعالي . . تعالي» ثم أخذنا ندرج في الممر الضيّق ، متلمسين طريقنا عبر الطلاب الذين راحت أجسادهم تتلاطم بنا ، فنتجاوزها بصمت ، وعلى عجل ، في سباق مع الوقت .

راودني أن أتلكّأ ، نابرة باستنكار : «إلى أين!؟» . . بيد أنني لم أفعل! لحظتها ، طاب لي أن يقودني من يدي ، بشدّة وإصرار ، نحو ما أتمناه ، ولا أجرؤ عليه! لذَّ لي ، ولو لمرة واحدة في حياتي ، أن أضرب العتمة الأبدية في عينيّ والإدارة والمدرّسين والمخاطر المحيقة ، من أية جهة كانت ، بعرض الحائط ، وأمضي ، معه ، مستسلمة كبلهاء! أغرتني العتمة الجاثمة على عينيّ في أن أتذرّع بها . بل لعلّي ، لبرهة ، شعرت بنعمتها في تغييب الآخرين عنّي كي أمضي حرة ، طليقة ، نحو صبابتي!

رحنا نهبط الدرجات بخطى متسارعة ، متقلقلة ، حتى

إذا ما انبسطت الأرض ، انعطف بـي ، فـأدركت أننـا صرنـا فـي الفسحة الضيقـة ، أسـفل الـدرج . همـد سـاكناً ، وهمـدتُ دون حراك!

لم يتوقّف زحف الأقدام وخبطـها فـوق رأسـينا ، فأخبرتـه بخوفي ، ورجوته أن نغيّر المكـان . «يعنـي أيـن؟!» سـألني ، فلـم أنبس .

شدّني ثانية ، ومضينا . .

أخذت أتعطَّف معه يمينـاً وشـمالاً دون أن أعلـم مَـنْ كـان يرانا ، ومَنْ لا يرانا! ففـي سـرعتنا ، ولـهوجتنا ، وتعثّرنـا أحيانـاً ، ممدودي اليدين ، نفسح في عتمتنا درباً لأقدامنا ، ما يلفت النظر حتماً ويثير الفضول ، ولذا عمدت إلى أن أتقـافز وأطلـق بعـض الأصوات للإيحاء بأننا نلهو أو نتسابق!

من لحاء الشجرة الضخمة قدَّرت أننـا بتنـا قـرب المدخـل النائي المهمل للمعهد . كان تلاحق لهاثه ، حـين وقفنـا ، يغـالب خفقان قلبي المضطرب . سألته بشيء من عدم الرضى : «هنا!؟» فنبَّهني إلى ضيق الوقت ، ثـم أحـاط كتفـيَّ بذراعيـه ، وأمـالني معه ، فاتكأنا على جذع الشجرة . أجَّلت اللحظة بسؤال لأحسم ترددي :

- أكيد ما في حدا؟!

- أكيد .

لم يغثني اقتضاب جوابه ، فداورت :

- شو عرّفك؟!

- ما في صوت .

- طيب تأكّد . . . شو خسران!؟

أطلق حمحمة استياء وهو يسحب يديه :

- طيب! انتظريني لحظة . .

ما كدت أسمعه يمضي ، حتى أترعني اشتهائي إليه ، فأردت أن أستوقفه ، غير أنه كان قد خطا .

جرَّ قدميه مبتعداً عني ، فيما راح لغط الطلاب ، من بعيد ، يملأ أذنيَّ ويناوشني! أصخت السمع ، فتناهى إليَّ ما يشبه تقصُّف أوراق وتكسُّر أغصان صغيرة . هدَّأتُ هواجسي : «ربما منه!» لكنها فارت . عندئذ مددت يديَّ ، ثم سعيت خلفهما بضع خطوات . انعطفت ، واستدرت ، وتراجعت ، وتقدّمت . . . فلم أحصد غير الفراغ! فراغ بدا لي ثقيلاً ، محتشداً بأشباح ، لكأن جميع العاملين في المعهد يتحلّقون حولي الآن! يتراجعون كلما تقدّمت ، ويتقدّمون كلما تراجعت ، مبحلقين ، متغامزين ، في انتظار فعلتي!!

هل كنت واهمة؟! هل أخافني خوفي ، فداخلني إحساس قوي بأنه ما عليّ سوى أن أهرول ، أن أندفع قليلاً فقط ، لأقع على أجسادهم المتزاحمة من حولي؟! ما من يقين

أعانني ، فرجوت ، بآخر أمل تبقّى ، لو تنزاح العتمة من عينيَّ برهة واحدة . برهة خاطفة لا أكثر ، كي أتمكّن من رؤية مَنْ حولي .

وكالمشرف على الغرق ، أخذت أُوسِّع عينيَّ بأصابعي ، أُباعد بين جفنيَّ وأحدِّق ، علّني أعثر ولو على حُبيبة ضوء خافت أُدّخرت من أيام طفولتي . . غير أن العتمة ، كالفزع في قلبي ، راحت تشتدّ وتتكاثف ، راسمة لي صوراً وخيالات ما كان بمقدوري دفعها عني!

في تلك اللحظة ، وكما وصلتُ إلى هنا مشدودةً من توقي الخبيء ، ألفيتني أدفع يديَّ أمامي ، واندفع خلفهما ، على غير هدى . . أركض ، وأتعثّر ، وأرتطم ، متخبطةً ، كمن تستنجد أو تستغيث! .

قلاع صغيرة

ناوشني قلق ، وأنا أمضي نحو صفوف الطلاّب ، من أن يرفضوا الفكرة من أساسها ، أو أن يسخروا منّي -ولو على نحو مضمر- ويستهزئوا بعرض الموضوع عليهم ، إذ لم يحدث من قبل أن جرّبتُ معهم أمراً كهذا ، ولا خبرت ، بالتالي ، آراءهم فيه ، وردود أفعالهم عليه ، مما دفعني للتفتيش عن صيغة للكلام معهم تعرض ما وافقنا عليه في إدارة المعهد ، من دون أنْ تقطع عليّ خطّ الرجعة!

وفيما كنت أتملّى في وجوههم ، مفسحاً لنفسي في الوقت ، رحت أتنحنح ، ثم أداور بالسؤال عن صحتهم ، وأناور بالاطمئنان عن أحوالهم ، إلى أن ركّزت نظري على كفيف - كي أتهرّب من نظراتهم- وأخبرتهم أن مخرجاً سينمائياً يرغب في أحدهم للقيام بدورٍ في فيلمه عن المعوّقين .

قلت ذلك باقتضاب ، وعجالة ، ونبرة لامبالاة ، لأتمكّن ، في حال استيائهم ، من طي الموضوع ، وكأن شيئاً لم يُقل!

توجُّسُ المحاذرة استوطن فيَّ من سنوات عيشي الطويلة

معهم ، وإدراكي لحساسيتهم ، ولظلال الأسى التي تخلّفها فيهم زيارات «الغرباء» عن المعهد ، لدراسة يقومون بها ، أو استطلاع يجرونه ، أو ما شابه ذلك ، إذ كانوا يغتبطون بالزوّار لساعة ، متبادلين الودَّ معهم ، متنقّلين أمامهم بحركات رشيقة ، واثقة ، طلقاء . . حتى إذا ما غادرهم الزوّار ، انكفؤوا يجرجرون أبدانهم وعكاكيزهم وحسراتهم ، وقد تلفّعوا بوشاحات من مضض أسيان ، كنت ألاحظه بوضوح تام ، فأجاهد ، لأيامٍ ، في خلعه عنهم ، وعنّي .

بيد أنهم ، في هذه المرّة ، باغتوني بابتهاجهم العريان! فما إن علموا حتى طفحت منهم الحماسة ، والاندفاع الشغوف ، والتنافس العجول في أن يقطف كلٌّ واحد ، دون غيره ، الدورَ لنفسه ، في حرص بالغ على حيازة «بطولة» فيلم يُعرض على شاشة كبيرة ، في صالة واسعة ، تحت أضواء جهيرة ، أمام كلّ الناس ، لكأن الظهور على الشاشة كان خلاصاً لهم من إعاقاتهم ، أو تخليصاً لأرواحهم من آثارها .

ويبدو أن حماستهم تلك قد لبَّت رغبتي في أن أجمعهم ، كلَّهم ، في طالب واحد يُظهر للناس كل خبايا عوالمهم ، ودفائن أحلامهم التي خبرتها فيهم عن كثب ، فوجدتني أبحث وأُدقِّق في الكبيرة والصغيرة من أبدانهم ، متوقفاً مع كل طالب على حدة ، أعاينه بدقّة ، وأتملّى في هيئته وحركته وصوته ، علَّني

أتمكّن من العثور على المراد : شاب وسيم ، مشدود الجذع ، يستخدم عكّازين ، معافى تماماً إلا من ساقيه اللتين لا بدّ أن تكونا شديدتي الإعاقة ، بحيث تهتزّان وتخفقان ، أثناء سيره ، كمنديلين لحظة الوداع .

كنت أظن الأمر سهلاً ، بيد أنني ما التقيت بالطالب ، أخيراً ، واخترته ، إلاّ بشق النفس!

فقد كان عليّ أن أعبر ، للوصول إليه ، حقلاً من الاحتجاجات والتذمّرات الصريحة التي راح يعلنها مَنْ استبعدته ، أو تردَّدت في اختياره ، أو أجَّلته إلى حين ، مطالبين إياي بإيضاح أسباب رفضهم ، وبيان مبررات تأجيلهم ، وعلّة تنحيتهم ، مما اضطرني ، ضائقاً بتزاحمهم وباستنكارهم ، إلى لفت هذا للقصر الحاصل في يديه ، أو تنبيه ذاك إلى التواء عنقه ، أو تذكير آخر بالحدبة البارزة في ظهره ، أو الحَوَل في عينيه ، أو تلعثمه بالكلام ، أو الهزال الشديد في بدنه مما يحول دون اختياره ، راجياً إياهم قبول التنحّي ، أو نابراً بحدّة في بعض الأحيان ، وخصوصاً مع الصم البكم الذين فاتني أن أشرح لهم ما يجري ، فلم ينفكّوا عن الإيماء لي بأصابع الحيرة وغمغمات التساؤل ، ولا أكفّ عن إبعادهم بإشارات خاطفة ، حاسمة ، فكانوا يتراجعون ، مع تساؤلاتهم ، ويركنون إلى جانب المرفوضين بابتئاس مندحر ، خلته -في تلك الساعات- زبداً للفشل!

ولا أدري كيف فاتني أن أُحاذر ، أو أتيقّظ للخراب العميم الذي كنت أخلّفه فيهم ، خلال سعي الدؤوب للفوز بأحدهم ، ذلك الخراب الذي سيكبر فيَّ ، ويتكوّر حدبة ، أحملها معي أنّى توجّهت ، حائراً لا في إخفائها عن أنظارهم ، بل عنّي ، أنا نفسي!

إذا ما كان لي ، في معمعة البحث ، وغمار الموازنة والانتقاء ، ووطأة الانهاك الذي حلّ بي ، أن أدرك -إلا متأخراً ، بعد فوات الأوان- أنني حين طفقت أنبش في هذا ، وأُظهِّر لذاك ، وأُبيِّن لآخر ما حرصت على إنسائهم إياه ووأده من حياتهم طوال سنوات مضت . . إنما كنت أضعهم وجهاً لوجه أمام إعاقاتهم ، خالعاً عنهم أردية الغبطة بأنْ لا شيء فيهم يعوّقهم عن شيء ، معرّياً إياهم ، واحداً بعد واحد ، ومعرِّياً نفسي أمامهم!

ما كان لي أن أدرك ذلك إلاّ بعد أن صدمني مشهدهم صدمات متتالية ، في أوقات متفرقة ، ساعة نلتقي في القاعة ، أو الباحة ، أو خلوة ، فألمح ، خطفاً ، على غير انتباه منهم ، كيف انتبذ أحدهم ركناً وراح يعاين قصرَ يديه باستغراب باد ، أو يتلمّس آخرُ بدنَه الهزيلَ محاولاً بأسى فضفضة ثيابه ، أو يدِّير ثالثٌ رأسَه إلى الخلف متقصّياً بجزعٍ الحدبةَ في ظهره ، أو يعكف رابعٌ على التحديق في مرآةٍ متفحِّصاً الحَوَلَ في عينيه . . . فيبدون ، في تنحِّيهم ذاك ، بائسين ، متهدّمين ، مثل قلاعٍ صغيرةٍ مهجورة! .

كفاصلة وسط الكلام

لم يشغلنا محتوى الأمر الذي أطلقه السجّان من خلف شبّاك المهجع بنبرة جافة ، حاسمة : «ضبّوا غراضكم» ، لأننا كثيراً ما جمعناها وحملناها منتقلين من مهجع إلى مهجع . . بل شاغلتنا حركة أخرى ، مباغتة تماماً : حين جمعونا أمام غرفة التفتيش وشرعوا يسلّموننا الأمانات التي كنّا أودعناها يوم دخولنا قبل سنوات ، وسط تكتّم صخري من عناصر السجن عجزنا عن تفتيته ، مما نكأ عنّا قشرة الاعتياد وأتاح للتساؤلات والاحتمالات أن تتدفّق بيننا وتربكنا عما عسى يكون هدف الإدارة من جمعنا هذه المرة . . وكيف لنا أن نتمكّن من تهدئة ما طاش فينا وتذبذب بعد أن تحوّلنا إلى قطيع دهمه ذئب المباغتة في بريّة منفسحة على المجهول ، نُقرِّب ما نرغب به ونتوق إليه ، ونستبعد ما قد يكون الغاية الوحيدة ، متبادلين استفهامات الأمل ، فلا يغنم السائل منّا إلاّ سؤالاً شبيهاً يضيف إلى تحيّره حيرةً أخرى!

ورغم اشتهائنا العطشان لما طفق أحدنا ، بإصرار العارف ،

على إفشائه همساً بيننا : «إخلاء سبيل يا شباب! . . بشرفي إخلاء سبيل!» . . إلاّ أنّ حدساً غامضاً دفعنا إلى تكذيب افتراضه ، بل والسخرية منه ، إلى أن شاءت الأقدار فجعلته الواقعة الوحيدة التي سنشهدها ، ولكن في أغرب وأعجب حالاتها : حين سيُخلى سبيلنا ، في قلب المدينة ، وسط الازدحام ، لدقيقة من الزمن أو يزيد ، فنختلط مع الطلقاء ، نسامرهم ، ونصخب على غرارهم ، حتّى إذا ما تملّكنا شعورٌ هانئٌ بأننا منهم . . . انتُزعنا من بينهم ، وأُعدنا ثانية : سجناء كما كنّا عليه!

وستتلو سنون كثيرة على بقائنا في السجن -كما مضت أخرى قبلها- ولكن من دون أن تفارق تلك الواقعة أحاديثنا اليومية ، أو تمّحي من ذاكراتنا ، أو تكفّ عن افتراش مناماتنا لكأنما تسعى ، برشق دافق من برهاتها ، إلى إيقاظ ما كاد يغفو أو يتبدّد من أرواحنا : لَذّة أنّ نكون طلقاء!

فنأي السجن على رأس الجبل ، مُجوَّفاً من ضجيج الناس ، وتشاغب الأصوات ، وغبطة الضوء ، راسياً في مضيق الوحشة ، قد صيَّرنا أشباهاً له ، نسكن إلى خيبة من تسليم أننا خُلقنا فيه ، وفيه سنقضي!

ولم يطل الوقت . فبعد انتهاء التفتيش ، رحنا نخطو ، ممسوسين بالذهول ، فرداً فرداً خارج البوابة الرئيسة الضخمة ،

عبر دهليز من حرّاس أشدّاء ، نحو حافلة صغيرة يحوط بها مسلّحون ، نتلفَّت حولنا لنتلمَّس ما يحدث ، فنتعثَّر بالتكذيب ونُثقلُ بالخبل .

وفيما تحرَّكت الحافلة نازلة من رأس الجبل ، وماضية في الشوارع والمفارق . . راحت تهطل علينا الأرصفة ، والمحال ، والبيوت ، والمارة ، ونداءات الباعة ، وألوان السيارات ، وصراخ الصبية ، وأعمدة الكهرباء ، ونداوة العتبات المغسولة . . . . وقد تلفَّعت ، كلها ، بغلالات شفيفة من ضياء وخَّاز شغلتنا عن شاغلنا ، وبعثرتنا بين محدِّق بالمارة يماشيهم بعينيه ، وملصقٍ وجهه بالنافذة ليُضيِّق ما استطاع المسافة بينه وبين الازدحام ، وغارق في ارتعاشات كفيّه وهما تتلمَّسان حرارة الشمس على أجسادٍ الزجاج ، ومغتبطٍ يحوك بابتسامات صريحة نسيجَ الوصال مع العابرين ، ومنكفئ إلى الخلف يعاود اغتنام المرئي ، أو لملمة ما فاته التملّي فيه . . . . وقد سطا علينا ، جميعاً ، خرسٌ بهيم سلبنا تماماً .

وكنا سنبقى هكذا ، رهائن الصمت المنبهر الذي خطفنا ، لولا اضطرت حافلتنا ، من ضغط الازدحام ، إلى التريّث حذاء حافلة أخرى صغيرة ، كحافلتنا ، سرعان ما هبَّ ركابها إلى التلويح لنا ، وتطيير ابتسامات الرغبة في التعرّف علينا والتحادث معنا .

ورغم ضجيجهم المندفع ، فقد مكثنا ، للحظة ، دون حراك ، حين تبيّن لنا بيسر ، من ألبستهم المسماة وحقائبهم وتقارب أعمارهم ، أنهم فريق رياضي . . إذ حرنا فيما يمكن أن نشير به إليهم ، آن راحت أصابعهم تنفتل بالسؤال العجول عن اسم فريقنا ووجهتنا ، وقد بدونا لهم -من حقائبنا ، ربما ، وتقارب أعمارنا وحافلتنا- أننا فريق مثلهم أيضاً!

ألحوا على السؤال ، وفاروا مثل رذاذ موجات تتلاطم بالصخور ، طالبين منّا أن نفتح النوافذ ليتيسّر الحديث ، ساهين -لا ندري كيف- عن شحوب وجوهنا ، واستلابنا ، وعن تلك الأقفال الصغيرة التي كانت تُحكِم إغلاق نوافذنا بشدّة!

ولم نلبد في كهف الذهول طويلاً ، فجعلنا نشوِّح لهم كيفما اتفق ، راسمين إشارات عشواء ، لا نفهمها نحن أنفسنا ، متبادلين معهم ، ومع مارّة شاركونا وشاركوهم ، ضحكات بكماء ، ونحن نحوص كدجاج ذبيح ، فنفتح أفواهنا ونغلقها دون أصوات ، ونشير إلى اتجاهات لا على التعيين ، مضيفين على جهلهم غموضاً حافزاً ندَّى عيونَهم بتساؤلات لجوجة مستغربة ، إلى أن بتنا وإياهم ، وسط الزحام الفضول ، فريقين يتباريان ، بالحركة والاندفاع والتنافس ، أحدهما أبكم ، والآخر طليق صائت!

من ضباب الالتباس ، اندفع أحدنا نحو زجاج النافذة ،

فعرَّانا تماماً ، بحركة واشية ، دالّة ، لا تخطئ تفسيرها عينٌ ، وذلك حين أشار بسبابته إلى صدره ، رافعاً ساعديه ، مصالباً باطن رسغيه ، مما أغرى آخرين ، من حافلتنا ، للإيماء بالحركة نفسها ، وأناخ على ركاب الحافلة المجاورة ، جميعهم ، وفي برهة واحدة ، ما يشبه رعباً ثقيلاً ، لزجاً ، جمَّد أفواههم المفتوحة ، وانتزع أصواتهم ، مسمِّراً حركاتهم ، فباتوا على هيئة كائنات بشرية آخر ما شعَّ من عيونها : ذهول غير مصدِّق!

وبنهزة متواقتة ، حين ارتجَّت الحافلتان وأقلعتا . . تواثبنا ، بفيضٍ توق دفين للتواصل ، نشوّح لهم ، ونومئ ، ونفور ، متوسِّلين منهم حركة ، أو نأمة ، أو صوتاً . . . بيد أن ذلك لم يحدث قطّ . مضت الحافلتان في طريقين متباعدتين ، تحمل إحداهما تماثيل من شمعٍ سكونٍ ذاهلٍ ، وتحزمنا الأخرى إليها ، وقد طوتنا في مقاعدنا ، فلا نعود نبصر ما يعبر على زجاج نوافذنا وينزلق ، ولا نحن ندري -ساعتها- إلى أين ترانا نمضي .

وشم

كان لا بدّ أن أناور . أن أغيّر دربي ، فأسلك عبر الحارة الثانية -ولو كانت أطول- كي أتابع طريقي إلى عملي دون أن أراه أو يراني . وإذا ما اكتشف حيلتي سأعود لسلوك الحارة الأولى . سأبحث عن أية طريقة للتهرّب منه لأنني لم أعد أطيق رؤيته . لم أعد أتحمّل عينيه وهما تفتحان لي باب دارنا وترافقاني خطوة بخطوة ، فيما أتشاغل عنه بتسوية فستاني أو ربطة شعري ، إلى أن يغيّبني عنه المنعطف . ما عدت أستطيع تدبّر خطواتي المتقلقلة ، دوران عينيّ وحيرتهما ، وتشنج بدني طوال المسافة اللعينة التي تفصل دارنا عن موقف الباص .

في السابعة والنصف من كل صباح ، حين أفتح الباب وأخطو ، أراه يتأهّب : يسوّي شعره وهندامه ، يضع باطن كفّه على فمه كأنما يتنحنح ، ثم يشابك ساعديه على صدره لتشرع شفتاه ، مع اقترابي منه ، بالانفراج والانطباق المتسارع ، المرتبك ، كالوجيب الذي يتعثّر ويترنّح في قلبي ، دافعاً بالحمى لتفيض مني ، فلا أبترد حتى تجاوزه عيناي ويغيّبني عنه المنعطف .

وبرغم أنه ما همَّ بلمسي يوماً ، ولا تبعني إلى مكان عملي ، ولا حاول اعتراضي ، بل ظل هناك ، في أواخر الحارة ، لصق شجرة الكينا كأنه لحاؤها ، يكتفي بحملي على ناظريه ، وبالرفرفة حولي بما تنطقه شفتاه . . . فقد ضقت برؤيته ، وبحالي ، وبالحارة ، وبالساعة التي رآني فيها وتعلّق بي ، وأنهكتني تلك المسافة التي أقطعها أمامه وأنا أتزلزل من أعماقي وأتصدّع ، فاقدة توازني حتى أكاد أن أسقط أرضاً ، لا بتأثّر من سماعي للكلمات التي يقولها ، بل على العكس تماماً : من عدم سماعي لها . .!

وما كان له أن يعرف بأنني صمّاء ، ولا أتاح لي أساي أن أخبره ، عزَّ عليّ فعل ذلك ، منعتني أنوثتي ، حال اعتزازي بصباي ، فصبرت مكابرة ، وداوم آملاً . لا هو كلَّ من فشل محاولاته في التودّد إليَّ وإظهار حبّه ، ولا أنا استطعت تجاهل عاهتي وتبادل الودّ معه ، فمكثنا على رهان مضمر كان لا بدّ أن أفوز به مهما مال قلبي إلى رقّته أو هفت عيناي إلى جماله وفتوّته .

وما بدا ، في الأيام الأولى من وقوفه ومغازلاته ، مفارقة طريفة تبسَّمت منها في سرّي ، راح يجرّحني استمراره ويحفر عميقاً لينبش عاهتي من خفائها ، ويذكّرني بها .

بلى ، وحده من كان يذكّرني بها .

فمع السنين التي تلت مرضي وإصابتي بالصمم ، طمرَ الزمانُ تصويتَ الكلام لديّ إلى أن نسيت أذنيّ ، سهوت عن عاهتي ، واعتدت ، مع أفراد أسرتي وأقاربي ومعارفي ، على إشارات أصابعهم وحركات أجسامهم وتقلصات وجوههم حتى بتّ أرى ما يقولون ، وأفهمه . ولولا بعض المراجعين هنا ، والعابرين هناك ممن يضطروونني إلى توضيح حالتي لترسّخ لديّ اعتقاد بأنني خُلقت لأفهم الناس من إشاراتهم .

من أين طلع لي هذا الشاب؟! ولِمَ يأسرني هذا الهمّ اليومي الجارح؟! وكيف لي أن أنجو من شهوة يحييها فيَّ وقد حسبتها ماتت وتبدّدت : رنين الأصوات ، بحّها ، نبرها ، همسها ، غنجها ، وتسرّبها الدفيء في الأذنين؟! وكيف أنبئه بأن كلماته التي يبذلها على مرآي لا تطيّر قلبي ولا تندّي روحي ، بل تذلّني وتنكّس رأسي وتنزلق نحو ساقيّ فتشلّهما؟!

ومن قهري رحت ، في المساءات ، أجثو على ركبتيَّ ، وأكشف عن صدري ، وأدعو الله أن يزيحه من دربي . أن يرسل له فتاة تشغله عني ، أو يدبّ اليأس في روحه فيعافني ، وأرتاح . .

لكن الله ما استجاب ، ولا برحتْ عاهتي مكان وقوفها قرب الشجرة ، وتذكيري!

حاولت تجاهله . ولجأت إلى صممي لأستعين به على صدّه وردّ كلماته خائبة ، خاسرة ، دون أن تتلوّن بأي انفعال

مني ، أو تكتسي بوقعها لديّ . . بيد أنه ما كفّ . لكأنما ظنّ تجاهلي خفراً ، فصبر عليّ وراح يُفقدني صبري عليه .

ولم يكن أمامي إلا أن أغيّر الحارة ، وفعلت . وحين لاحقني إلى الحارة الجديدة -بعد أن اكتشف حيلتي- عدت إلى الأولى ، فعاد . لكنني عاودت بإصرار وعناد : بكّرت في ساعة الخروج ، وتأخرت عن موعد العودة ، وتغيّبت مرات كثيرة . . . . فاختفى!

اختفى ، وبرئت من كابوسه . تخلّصت منه . من مرآه ودمامل كلماته . وعدت ، هانئة ، إلى سكينتي . سكينتي التي خضّها وعكّرها أياماً كثيرة . ومن فرحي بخلاصي منه وجدتني -رغم اختفائه- ألعنه وأدعو عليه بالموت!

ألعنته حقاً؟! أدعوت عليه؟! . . أم تراني على نفسي كنت أدعو ، وألعنها؟! إذ ما كنت لأحسب ، ولا كان للشياطين أن تحسب ، أن خلاصي منه سيرتدّ عليّ ويدحرني أمام الناس وأمام نفسي!

ما كنت لأحسب أن عينيّ ستثابران على التسابق إلى الباب وشقّه للطيران منه نحو شجرة الكينا . . وأنني سأعتاد على قطف الحصة الأكبر من صباحاتي لتخيّر أجمل أثوابي وتزيين شعري والتملّي في هيئتي طويلاً قبل مغادرة البيت ، لكأنما كنت آمل في لقائه مجدداً!

وحتى لو تدبّرت العادات التي اكتسبتها من وقوفه ومغازلاته . . فكيف لي أن أتدبَّر أو أتحمّل الناس الذين تحوّلوا في عينيّ إلى أشباح جراء حركات أذرعهم وتلوّي أجسامهم وتغضّن وجوههم؟! كيف لي أن أتدبّر المشاعر الجديدة التي أنبتها فيَّ وراحت تُظهر لي أن تلك الحركات تفضح عاهتي . . تعرّيها للقاصي والداني . . تفردني عنهم ، وتنبّهني إليها ، فينتابني الأسى لكأنني ، للتوّ ، أُصبت بالصمم!

وفجأة راح يدهمني شعور طاغ بأنه ، وحده ، من كان يعيد إليَّ سمعي!

ففي تلك المسافة بين دارنا والمنعطف ، على مساحة غبش الصباح الفضّي التي تضيق بيننا وتضيق ، وفيما كان يعانق ذراعيه على صدره ويترك لشفتيه أن تشاغبا على وقع خطواتي . . كنت أسمعه . أشفى من بلائي ، وأسمعه!

وأتذكّر الآن -في غيابه- أنني كنت أطرق فعلاً ، وأُعجِّل من خطوي ، وأُثبّت رأسي . . لكنَّ ناظريّ كانا يتآمران معه ، فيهربان إلى أقصى زاوية من عينيّ ليضمّا آخر حركة من شفتيه ، حتى إذا ما عدت إلى البيت ، وليَّل الليل ، وآويت إلى فراشي ، راح غطاء وسادتي يتماوج تحت أذنيّ كحركات شفتيه فأسبح في بحر من النشوة والفرح بأنني مثل كل الفتيات ، مثل كل الذين يتخاطبون بالشفاه ويهمسون بالخفاء .

ومن استمرار غيابه راح ينمو اشتهائي لحركة الشفاه وهي تسرّ وتبوح . تفتّح توقي إلى لقياه . تسرّب إليّ شعور مرير بأنني أضعت فرصة قد لا تعوّض : أن أعود -ولو لبرهات- إلى ما كنت عليه قبل إصابتي . فمن تجاذب شفتيه وتباعدهما كل صباح كنت أغتسل وأبرأ وأنتشي . تكسر روحي جدارَ الصمت الكتيم ، وتحلّق .

وبلا تردّد ، طفقت ألوب باحثة عنه!

فتّشت الحارات القريبة والبعيدة . تمعّنت في وجوه الشبان العابرين . تريّثت قرب الشجرة . نظّمت أوقات خروجي . بحثت ، وانتظرت ، وصبرت ، فلم أجنِ غير الخذلان : هو يوغل في غيابه ، وأنا أُفعم بالتّوق إليه!

وها أنا اليوم ، وقد طال غيابه وامتدّ إلى ما يفوق طاقتي على انتظاره أو يمكن لروحي أن تحتمله ، أدلف ، من جديد ، إلى عتم قوقعتي ، مغلقة صمتها عليّ ، وآملة البراء من وشمه . . . وشمه البليغ الذي خلّفه في كياني كلّه ، والذي لا ينبّهني ، ويكويني ، كلما عبرتُ أمام شجرة الكينا ، وتفتّحتْ أذناي كزهرتين ، حتى إذا ما جاوزتها ، ووصلت حافة المنعطف ، ومضيت . . غرقت في لجّة صممي البهيم . . وأحراجٍ من الأيادي التي تتقاطع وتتلوى أبداً أمام وجهي .

عن أمي

لو اكتفت الدورية ، بعد الخبط على الباب وقيام رئيسها بالتأكّد من اسمي ، بأن ألقت القبض عليَّ فوراً ، وساقتني تحت أسلحتها إلى سيارة «اللاندروفر» المتأهّبة خلفهم . . . لما دَرَتْ أمي -ساعتها- بكل ما حصل ، ولما وجدتُ نفسي في ورطة كانت أشقّ عليَّ من بغت المداهمة وعملية الاعتقال!

كان ذلك ممكناً لو حصل ، لأنّ أمي -علاوة على كونها صمَّاء- قد آوت إلى النوم تلك الليلة منهكة تماماً ، إثر احتفالنا ، أنا وإخوتي ، ببلوغها الثمانين في الرابع والعشرين من آذار ١٩٧٧ ، والحاحنا عليها كي ترفع النخب معنا ، وتراقصنا ، وتستذكر طفولة كلٍّ منا بمفرده ، وتعيد لنا الوقائع الغريبة لفقدانها سمعها في تلك الأيام ، والتفاصيل المثيرة لزواجها من المرحوم أبي . . إلى أن استنجدت بسريرها لأنها لم تعد تقوى ، كما أقسمت ، على السهر بعد هذا الوقت المتأخر من الليل ، فودّعني إخوتي ، وانسللت بدوري إلى فراشي وغفوت . .

لكنّ الأمر لم يجرِ هذا المجرى ، فعقب سؤال رئيس

الدورية عن اسمي ، أزاحني بكفّه الضخمة عن الباب ، واندفع بعزمٍ مع مجموعته ، ثم أخذوا يفتّشون كلّ شيء : الخزانة وأدراجها والصندوق الخشبي وجيوب ثيابي والرفوف والعلب وأسفل المقاعد . . وذلك قبل أن ألتقط أنفاسي وأصدِّق ما يحدث ، إلى أن رفع أحدهم طرف الفراش الذي تنام عليه أمي ، فأدركت حينها أية ورطة سأواجهها!

وقد حدث فعلاً ، إذ استيقظت أمي ، وراحت ترفع جسدها الواهن على ذراعها النحيلة ، وتفرك بالأخرى عينيها الغائرتين ، وهي تدير بصرها الضعيف محدِّقة فيمن حولها ، كما لو كان ما يجري مناماً!

«شو صاير؟ . . شو في؟!» هتفتْ تسألني بنبرة استغراب ، فمسحتُ على رأسها ، ثم أملت خدي على باطن كفي في إشارة لها كي تعود إلى النوم . . . لكنها عقدت حاجبيها ، وضيَّقت ما بين جفنيها ، وعادت تسأل كما لو أنني لم أفهم من المرة الأولى : «شو صاير! شو في؟!» وهي تُنزل ساقيها اللتين انشمر الثوب عن تهدّل جلدهما .

أقعيت من فوري قبالتها ، ثم رفعت كتفيَّ ، ماطّاً شفتيّ بما يوحي باللامبالاة ، ورحت أربِّت على ركبتيها ، على أمل الإيحاء لها بأنْ لا شيء يهمّ كثيراً ، غير أنها فزّتْ من مطرحها ، واندفعت بظهرها المحني نحوهم ، تمسك بأحدهم ، وتشدّ آخر ،

وتعترض ثالثاً بحميّة لبوة وهي تسأل وتعيد ، دون أن تسمع استنكاراتهم ، عما يحدث؟ ومَنْ يكونون؟ وماذا يريدون؟!

قدَّرتُ عواصة الأمر ، فسعيت إلى تهدئتها ، والحيلولة بينها وبينهم ، مرسلاً ، بيديَّ وعينيَّ وملامح وجهي ، ما أمكنني من إشارات الطمأنة الموجزة السريعة بأن الأمر بسيط ، وعابر ، ولا يستوجب تدخلها . . فبدت لها محاولاتي تخريفات حقيقية! «ولكْ شو جنيت!!» صرخت بي وقد ازدادت حيرتها ، وتوقّد توجسها منهم ، وربما منّي أيضاً!

التفتُّ بسرعة إلى رئيس الدورية لأفهمه شيئاً ، فتطاولتْ من فوق كتفي ، وراحت تعنّفه وتشتمه ، فصاح بوعيد الانذار الأخير :

- قلْتلّك ارتاحي . . انتِ ما دخلك . . هادا شغلنا . . فهمتِ ولا لأ!!

وبين خشيتي من احتمال إهانتها ، ورغبتي في دفع الأذى عنها ، وطيش صوابي من مداهمتهم ، وانشغالي بترتيب أقوالي وعلاقاتي ، وحرصي على لملمة ما تبقى من وقت . . أمسكتها من كتفيها ، وجذبتها نحو السرير ، بشيء من الشدّة ، فتجرجرت معي دون أن تدير وجهها العبوس عنهم .

«أمي . .! خلصنا!» صحت مستاءً ، وضغطتُّ على كتفيها المتقوستين الملمومتين ، فتجمّعت كومةً على السرير . أحسست

أن وزنها أخفّ من الهواء ، بيد أن نظرتها الآسيانة اللائمة التي رمقتني بها من خلال عينيها الزائغتين كانت أثقل عليَّ من جبال الأرض!

وبين حيرتي في مراضاة أمي ، وقلقي منهم ، باغتني صوت رئيس الدورية : «امشِ!» ، فأدركت نفاد الوقت ، لكنني لم أمتثل! أحطتُ وجهها ، لأبثَّ فيه رجاء الغفران لي ، فأغمضت عينيها بشدّة ، وانقطع الكلام!

أردت أن أغنم برهات قليلة ، فتذرّعت بارتداء ملابسي ، لكنّه عاود : «قلتلّك امشِ!» . . بسرعة لصٍّ خلعت منامتي ، فبتُّ عارياً . أمسك أحدهم بي ودفعني ، فجذبتني أمي إليها ، ثم لا أدري لِمَ ، في تلك اللحظة ، قرّبت أذنها من فمي وهمست بصوت متلجلج وهي تسترق نظرات ارتياب نحوهم : «وحياة أمك تقول . . شو صايرا؟» واثقة من أن ذلك يكفي تماماً لتعرف المستور عنها على غرار ما تعوّدتْ أن تفعله معي أيام طفولتي حين كان يستعصي عليها اعترافي بفعلة أو أمر فتدفعني للقسم بحياتها ، وحينئذ لا يبقى للسرّ مطرحاً في صدري!

نفد تذرّعي ، ووهنت روحي ، وشعرت بخواء رهيب في داخلي وأنا أقف مسلوباً وسط الغرفة ، يعذّبني جهل أمي بما يجري ، وعجزي التام عن أن أحكي لها أي شيء ، عن أن أوجز لها وقائع سنوات مضت من حياتي ، مَنْ هؤلاء؟ وكيف صار لهم

أن اقتحموا البيت ، وصار لي أن أتحوّل أمامهم إلى مجرد أرنب مستكين كأنَّ ما يجري لا يعنيني!؟

جرّني أحدهم نحو الباب ، فانتزعت نفسي واندفعت نحو أمي . ضممت خدّيها المتهدّلتين بين كفيَّ ، أريد أن أخبرها بعينيَّ عن كل شيء . أن أودعها كل أسراري كما تعوّدتُ أن أفعل دائماً . أن أبدّد بعض الخذلان الذي ملأ عينيها . . فلم أقوَ!

وَلَكَم وددتُ ، في تلك اللحظة ، أن تؤويني إليها . أن تضمّني إلى صدرها فلا أنفكّ عنها . أن تعيدني إلى رحمها الدافئ فتخفف من الشعور الذي حلَّ بي من أنني وحيد ومفرد . لكنها ، حين جرّوني ثانية ، ما استطاعت سوى أن تمسك بي بيدين مرتجفتين متشنجتين ، وهي ترهف عينيها كي أخبرها بشيء ، أيّ شيء ، يطفئ الحيرة القاتلة فيهما ، فلم أملك غير أن أمضي . رحت أتجرجر ووجهي إليها . أرفع أصابعي مشيراً ، وأخطو . أغمز لها متضاحكاً ، وأخطو . أميل برأسي وأبسط ملامح وجهي ، وأخطو . . فيما عيناها الغائرتان تتابعاني وتحلّفاني أن أقول ، فلا أملك إلا أن أواصل إرسال تلك الإشارات العشواء المتخبّطة ، والتي لا أدري ما عساها فهمت منها ، وما لم تفهم ، إذ لن يتاح لي ، بعد سنوات طوال من اعتقالي ، أن أسألها وأعلم منها ، أو أن أتمكّن من رؤية عينيها والتملّي فيهما ، أبداً .

طيور

على هيئة لم أرهم فيها من قبل ، اندفعوا نحو مكتبي ، يحجلون على عكازاتهم حجلاً رشيقاً ، متواتراً ، تسبقهم بهجتهم ، ويلحق بهم رنين عكازاتهم المعدنية ، متدافعين كأنما يسعى كلٌّ منهم للفوز بإبلاغي النبأ : «تخرّجنا أستاذ . . تخرّجنا» .

- مبروك . . ألف مبروك .

قلت وأنا أنهض إليهم مصافحاً معانقاً ، ثم انخرط معهم في أحاديث عن أيام مضت ، رحلات قمنا بها ، مباريات خضناها ، وكذا شقاوات كثيرة ارتكبوها ، وجهود بذلتها لدى الإدارة فأثمر بعضها وخاب بعضها من دون أن يكفّوا ، أو أكفّ ، لكأنما جُمعنا في المعهد كي يخطئوا على الدوام ، وكي أتورّط في تبرير أخطائهم لدى الإدارة على الدوام أيضاً!

من رحم اللغط انبثق صوت أحدهم :

- بدنا نتصوّر معك أستاذ . .

- طبعاً! أقلّ منها؟!

أجبته ، ثم هممت معهم نحو حديقة المعهد في الطرف الآخر منه .

وفيما راحوا يمضون باشتهاء الوصول ، وأمضي خلفهم متأملاً عكازاتهم وهي تشتبك مثل فروع غابة كثيفة ، ساحبة أرجلهم التي بدت ، على وهنها وهزالها ، عازمة مريدة . . . عاودتني اندفاعاتهم أيام كانوا يلحّون عليّ كي أُحكّم مبارياتهم في كرة القدم ، أو مسابقاتهم في الجري ، أو منافساتهم في تسلّق الأشجار أو صعود التلال التي كنا نصادفها في رحلاتنا .

رحلاتنا؟ لا شيء كان أحبّ منها إليهم ، وأغرب منها لديَّ!

فما ان يتقرّر موعد رحلة حتى يتغلغل نشاط النحل في أبدانهم : يهيّئون كرات القدم . . يتفحّصون قطع الجلود أسفل عكاكيزهم . . يلفّون حبال التسلّق . . يحتذون نعالهم الرياضية ، ثم يأتلقون بضياء غريب على بوابتي الحافلة كأنما انفكّوا ، للتوّ ، من أسرٍ مديد!

فشلي -داخل المعهد وفي الرحلات خارجه- في إقناعهم بلعب الشطرنج أو التباري بالأشعار أو معرفة عواصم الدول ، حيَّرني حقاً! فما أكاد أعرض عليهم ، حتى يهبّوا إلى إبداء امتعاضهم واستيائهم بنبرة رجاء ، فإذا ما حاولت أن أُعنّتهم ، تذرّعوا بشتى الذرائع ليتنصّلوا مني ، مختلين بألعابهم

الأثيرة لديهم بعيداً عن وصايتي إلى أن ألحق بهم وأنخرط معهم ممتثلاً مستسلماً!

وفي حمأة اللعب، وضجيج المتعة، وشهوة العكاكيز، بتُّ -أنا أيضاً- أؤثر ألعابهم الحيَّة الرشيقة على ألعابي البليدة المقترحة، مما جعلني أسهو تماماً عن معوّقات أبدانهم، فأغضب بجدّ إثر تمريرة خاطئة للكرة، وأتبرّم فعلاً من تباطؤ أحدهم في الجري، وأنبر بحدّة على متردّدٍ في صعود تلّة!!

ولا أدري، حتى الساعة، لِمَ لمْ يعترضوا يوماً، أو يلفتوني بكلمة أو بإشارة حين كنت أغالي وأتمادى في تصرفاتي فأصرخ محتجاً، أو أقوم بفصل المتكاسل منهم، أو أتهددهم بالتخلّي عن التحكيم.. بل على العكس، كانوا يثنون على احتجاجي ويصادقون على تهديدي، حافزين بعضهم بعضاً، أو لائمين!

وإذ أمضي الآن خلفهم، وهم يحجلون بهمة أبدى، ونشاط أظهر.. يحزّ في قلبي شعور بالغ الأسى بذنبٍ لم يعد بإمكانيَ التكفير عنه أبداً: «لقد جرتُ عليهم كثيراً وقسوت. لكأنني عميتُ عن عذر إعاقاتهم طوال عامين مضيا، وأبصرتها الآن!».

وما كنت لأبرأ من أساي النازف لولا أن باغتوني في الحديقة بما لم أعهده فيهم يوماً، ولا خطر لي على بال أن يفعلوه!

كانت الحديقة قد بسطت أرضها بانتظارنا .

اقترحتُ : «أصوّركم كخريجين أولاً ، ثم أتصوّر معكم» وانتحيتُ متريثاً كي ينظّموا صفوفهم ويرتّبوا وقفتهم .

ورغم اعتيادي تأخّر استقرارهم كلما اجتمعنا في فسحة أو قاعة ، إلا أن تقلقلهم زاد عن مألوفه ، وهو ما رابني في وضعهم!

طفقوا يحومون في المكان ، وحول أنفسهم . يداورون ويلوبون كمن فَقَدَ شيئاً ثميناً . وثبوا وحجلوا من حيّز إلى آخر . تقاربوا ، هامسين مهمهمين ، ثمّ تفرّقوا متبادلين الأماكن . شدّ بعضهم أبدان بعضهم وتراصّوا ، مستعينين بأيديهم في رفع أرجلهم وتثبيتها ، وقد اتخذت وجوههم هيئة جدّ محيّر ، ووشت ملامحهم بإجهاد نابهم .

نبرتُ مستاء : «خلصنا يا شباب!» غير أنهم ، لغاية لم أدركها وقتها ، عاجلوني برجاءات متكررة : «لحظة أستاذ . . لحظة أرجوك . .» وتابعوا بهمّة أكبر ، من غير التفاتٍ إليَّ ، شدَّ صفوفهم وتعشيق أبدانهم تعشيقاً قوياً محكماً!

بصوت واحد ، بعد تبادلٍ للنظر خاطفٍ ، ندهوا :

- صوِّر أستاذ . . صوِّر .

ثم استتبّ سكونٌ كثيفٌ لكأنما غادروا المكان .

رفعت الآلة إلى عيني ، فبدوا أسرى خـط المربع الأصفـر ، ناهدي الصدور ، تشخص أبصارهم نحو أفق بعيد .

- انتبهوا . .

لم تطرف عين .

- سأعدُّ : واحد . . اثنان . . . .

بلمحة ، قبـل أن أُثلّث ، رَمَـت الحديقـةُ عنـها انبسـاطها ، وارتجّت الأرض تحـت قدمـيَّ ، إثـر قيامـهم ، فـي حركـة سـريعة عازمة ، بدفع العكاكيز بعيـداً عـن أبدانـهم ، لتـهوي ، بدورهـا ، محدثة دجًّات متواكبة ، فيما انفلق خطّ المربّع الأصفـر متبعـثراً جرّاء ارتفاع أياديهم بأوراق شهادات تخرّجهم التي بـدت ، فـي تذبذبها ورفرفاتها ، أجنحة طيور بيضاء تهمّ لتوّها بالطيران . . .

صرير الندم

حارت أمي في سرِّ عودتنا السريعة إلى البيت ، أنا وإخوتي الثلاثة ، مبلَّلين بالمطر من رؤوسنا حتى نهايات أقدامنا ، نحمل لها ، علاوة على خيبتنا ، سؤالاً مبلّلاً بالحيرة ، لن تتمكَّن ، رغم استفساراتها وتخميناتها ، من العثور على جواب له أبداً!

إخوتي لن يعرفوا أيضاً . سيضمّون استغرابهم إلى استغرابها ، ومشاعرهم إلى توجّساتها ، ثم يتقلَّبون ، مثلها ، على نار احتمالات لا تنتهي ، سعياً لفكّ اللغز ، إلى أن يكويهم الغموض ، ويمطّ شفاههم ، باثّاً فيما بينهم نظرات تساؤل معلّقة!

وحدي ، أنا الأصغر بينهم ، كنت أنطوي بين يدي أمي ، مستسلماً لرعايتها الحنون ، ومتشبّثاً بصخرة صمتي المبين ، لا أريم ، ولا انبس ، خوف افتضاح أمري الذي يُثقل كاهلي الضعيف!

كان يكفي ، من فرط عجزهم عن معرفة السبب ، أن أُسأل ، ولو على نحوٍ عابر ، سؤالاً واحداً ، خفيفاً ، بسيطاً . . أو يُلقى إليَّ

بنظرة استفهام لا أكثر ، حتى أنهار وأتبعثر كأوراق اللعب ، وأعترف لهم بما حدث معي ، وظلّ خافياً عليهم جميعاً . . لكنّ أحداً لم يسألني ، لم يلتفت إليّ ، ولا أعارني أدنى اهتمام ، بمن فيهم أخي سعيد ، الأكبر مني بسنوات ثلاث ، والذي طالما رويت له «مغامراتي» وروى لي أيضاً!

لكأنهم ، جميعاً ، اتفقوا ضمناً على تحييدي . على إفرادي بعيداً عن الشبهات والمساءلة في حين كنت المتهمَ الوحيدَ . . الوحيد الذي خان ، وغدر بهم ، وأخفى ما يبحثون عنه ، مستمتعاً بحيازة ما لا يملكون!

ما كنت أعلم ، حين أرسلتنا أمي إلى بيت خالي على عجلٍ ، أن مغامرةً ، من نوع جديد ، لم أخوِّض فيها من قبل ، تنتظرني هناك . تقبع في الركن المظلم من المطبخ ، لتراودني عن نفسها ، وأنني سأندفع نحوها ، فاضّاً بكارتها ، وأتعرّف ، لأول مرة في حياتي الغضّة ، على تجربة الخيانة ، على غبشها الهامس ، ودربها السرّي ، وطعمها الذي بدا لي ، حينها ، شهياً على نحوٍ يفوق الخيال!

في تلك الليلة ، أتلف المطر بيتنا الطيني العتيق . تسرَّب إليه من شقوق سقفه ، ومن أثلام نوافذه ، ومن خلعات أبوابه ، حتى أعجز أمي ، وأفقدها الحيلة على تدبّره كعادتها في كل عام ، إذ فاقت غزارة الأمطار وقوتها ودوام هطولها كلَّ الشتاءات

-كما قالت- التي مرَّت في حياتها ، فكان لا بدَّ ، وقد فشلت في العثور على مطرحٍ لإيوائنا ، من أن ترسلنا أخيراً إلى بيت خالي لنبيت فيه ريثماً ينصرم ذلك الليل الملعون!

توجَّسنا من بهمِ الليل في الخارج ، ومن جنون الأمطار ، بل ومن الفكرة ذاتها ، لأن علاقتنا مع بيت خالي كانت أضعف وأوهى من قبولنا نزلاء عندهم . . . إلاّ أننا غادرنا ، محمولين على وصايا أمي وتحذيراتها لنا ، وشروحها لأختي الكبرى عن حال بيتنا كما عليها أن توضح لهم ، وتأكيداتها بأننا لن نبيت أكثر من هذه الليلة فقط ، وأن الصباح رباح . . . وهو ما استنفرت أختي ، فيما بعد ، كلَّ قواها وشجاعتها لنقله ، مضيفة ، من رغبتها في إقناعهم ، بأن أحد الجدران على وشك التهاوي!

وبالطبع ، لم يكن الوصول يسيراً ، فإلى الطريق الطويلة الوعرة ، الغاصَّة بالطين والحفر الكثيرة المغمورة بالماء ، والتي قطعناها مشياً لانتصاف الليل وانعدام وسائط الركوب . . فقد حرن أخي سعيد ، مع أول خطوة دخلنا فيها الشارع الإسفلتي المضاء بالمصابيح الجهيرة والمنتهي ببناية خالي المكسوّة بالحجر الأبيض ، وطلب أن نعود أدراجنا! غير أن أختي لم تمتثل . زجرته ، وتشاجرت معه ، ثم شدّتني من يدي ، ومضت خطوات أوسع ، لكأنما أرادت أن تنتزع منا التردّد والخوف اللذين أصابانا وقلقلا خطواتنا!

حين وصلنا ، صعدت أختي أولاً ، وصعدنا وراءها إلى الطابق الثالث كالأسرى ، تنزُّ منّا خيوط الماء ، حتى إذا ما بلغنا الباب الخشبي اللمَّاع تراجعنا خطوتين ، تاركين لها أن تقرع جرسه ، وتكون أول من يهلّ عليهم . . لكنها اكتفت بأن راحت تنقر بإصبعها نقراً خفيفاً ، وجلاً ، أعاد إلينا الارتباك بأشد مما كان!

بوغت خالي بمجيئنا الليلي كما عبَّر عن ذلك وجهه وهو ينهض متثاقلاً لاستقبالنا . وبوغتت زوجته على نحو صريح فسألتنا : «خير إن شاء الله!؟» . . لكنَّ المفاجأة الأكبر ستأتي من إعادتنا ، بعد نحو نصف ساعة على وصولنا ، كجراء مطرودة تهرُّ من خيبتها! .

سنُعاد على نحو مريب ، يستعصي تفسيره على إخوتي ، وعلى أمي فيما بعد ، التي شرعت تسأل عشرات الأسئلة الشكّاكة عمّا إذا لاحظت أختي ، أو لمح إخوتي ، تجهّماً على وجوههم ، أو نفوراً منّا ، أو ضيقاً بطلب مبيتنا عندهم ، أو ما إذا كان أحدنا أساء الأدب والتصرّف . . . فلا يزوِّدها الجواب إلاّ بالغضب والصراخ : «إذن ، لِمَ عدتم؟! ماذا حدث؟! قولي من البداية . .» تطلب من أختي ، فتعيد المسكينة رواية تفاصيل زيارتنا مِنْ قرع الباب ، حتى طلب زوجة خالي ، الحازم ، والمباغت : أن نعود إلى بيتنا كما جئنا!

ولقد بقي خافياً على الجميع انني حين شعرت هناك بالحاجة إلى التبوّل ، وهمستُ لأختي ، ثم دخلت المرحاض ، وفتحتُ الباب لأخرج . . . سأجد زوجة خالي بانتظاري!

بقي خافياً كيف انتحتْ بي في ركن المطبخ ، وأخذتْ ، على غير عادتها ، تمسح على رأسي بوداعة ، ثم تضمّني إلى صدرها قليلاً ، قبل أن تفرد أصابع كفّها على نقود فضيّة متلألئة ، وتسألني عمّا إذا كان المطر يدلف إلى بيتنا حقاً أم لا؟

ستمضي سنوات كثيرة ، فأغادر طفولتي ، وترحل أمي ، وتتوالى في حياتي شتاءات لا تحصى ، من دون أن أعرف كيف قُيّض لي أن أقول لها ، يومذاك ، بصوت هامس ، هادئ ، وقلب لهوف ، ودون برهة تردّد : لا!

وحتى حين عاودت السؤال مشفوعاً بابتسامة صريحة : «لا يدلف؟!» عاودتُ الجواب بحميّة : «لا . لا يدلف» . فقالت . «احلف» ، فحلفتُ . أقسمتُ لها بكل ما أوتيت من قوة وطمأنينة : «والله» . . كاسراً الهاء ، وغافلاً عن انكساري المتربّص بي في قلب الليل ، حين سنخرج من بيت خالي فيصفعنا البرد ، وتشمت بنا العتمة ، فأشعر ، وأنا أتجرجر خلف أختي ، برغبة طاغية للبكاء وقد راح صرير الندم يهلهلني . أشعر أن بالإمكان ، بعدُ ، أن أُخرج النقود من جيبي وأرميها لأتخلّص من لدغاتها ، أو أن أرجو أختي السماح لي بالعودة ،

ولو لدقيقة واحدة ، أُقسم فيها بالله وبرأس أمي أن المطر يدلف إلى بيتنا . . . لكنني لم أفعل هذا ، ولا تجرّأتُ على فعل ذاك ، فما كان أمامي إلاّ أن أعِدَ نفسي بالاعتراف لأمي حين نصل إلى البيت .

وفي اشتباك أسئلة أمي مع إجابات إخوتي المتكررة ، رحت أتحين الفرصة لأعترف بفعلتي . . .

لبدتُ ، ويدي متحفّزة في جيبي! انتظرت كلمة ، أو نظرة ، أو سؤالاً . . . تابعتُ أمي بعينيَّ وهي تفزُّ وتقعدُ ، توزّعُ العلب تحت قطرات المطر الدالفة ، أو تضرب على فخذيها ، ناثرةً على إخوتي الأسئلة وفتات الشتائم والهمهمات .

وفي برهة هدأة نويتُ . فتحتُ فمي وكدتُ أخبرهم . . . لكن الغضب على وجه أمي طغى عليَّ ، وتبدَّى استياؤها المقهور على نحوٍ كان أثقل من أن أزحزحه باعتراف متأخّر!

في اللحظة الأخيرة ، قبل أن يطويني النوم ، هلَّت الفرصة الذهبية ، عندما نبرت أمي بإخوتي أن يتدبَّر كلٌّ منهم أمر منامته ، مستثنية إيَّاي قربها في الفراش . وحين سارعتُ مندسّاً تحت اللحاف ، هبَّ دفؤها الحميم فشجّعني على أن أقول . تلمَّستُ في يديها الملتفَّتين حولي غفراناً . هدهدني صدرها وطمأنني ، فشددتُ ثوبها برفق ، عازماً عزماً أكيداً : «أمي . .!» إلا أن صوتي غاص في رطوبة العتمة . شددتُ

ثانيةً : «أمي . .!» فعلا تنفُّسها بشخير ذابل . حاولتُ مرة أخرى ، وأخرى ، فلم تستجبْ سوى بضمّي وإيوائي إليها .

ولا أدري ما الذي حدث ليلتها بعد ذلك . . .

كل ما أذكره ، الآن ، أن صباح تلك الليلة عدا ، وعدت بعده صباحات وليال كثيرة ، ما آويت إلى نوم ، واندسستُ تحت غطاء ، إلاّ ووجدت نفسي كما لو أنني أشدّ ثوباً وأنده «يا أمي . . .» فلا يَترجّع غير صوتي منبثقاً من رطوبة العتمة .

تلك الحبَّات

عجزنا ، فعلاً ، في العثور على حلٍّ ، وأنهكتنا المحاولات الكثيرة ، فبقينا ندور ونلفّ في حلقة مفرغة ، من دون أن نجد لأنفسنا مخرجاً من ورطتنا!

فرغم اجتماعاتنا المتكررة داخل المهجع ، ومناقشاتنا العامة الطويلة ، والأخرى الجانبية في باحة التنفّس ، ولجوئنا إلى السجين الأقدم -الذي كنّا انتخبناه رئيساً للمهجع- علَّه يتمكّن ، بخبرته الطويلة ، من تخفيف الاختلافات الحادة ، ووضع حدٍّ للاشتباكات التي تزايدت بيننا في الفترة الأخيرة... إلاّ أن الفشل غلبنا جميعاً!

وإذا كان البعض منّا قد حاول اتخاذ موقف الحكمة ، وإجراء «جولات مكوكية» بين المتنازعين ، وتطييب خواطرهم ، وبيان ضآلة الموضوع المختلَف عليه بالقياس إلى الأسباب والأهداف التي قادتنا إلى هنا ، والتذكير بأعمارنا التي تجاوزت سنَّ الولدنة والمراهقة بأشواط . . . فإن أولئك لم يحدث أن غفلوا -قبيل يأسهم في إقناع المتشدّدين بقبول المصالحة- عن استخدام

السهم الأخير بالتفطين للبداهة التي لا يختلف عليها سجينان وهي أن ما من خاسرٍ ، أمام السجّان ، وما من رابح أبداً!

وحقيقةً ، فكم من مرة اندفع أحدنا كهبّة ريح نحو الباب -وقد علا الصياح واحتدم الضرب- ثم راح يدقّه دقّاً عنيفاً متواصلاً إلى أن يحضر السجّان ، ويلفّنا جميعاً من دون استثناء بغضبه وشتائمه ، جارّاً بضعة منا ، لا على التعيين ، وعائداً بهم مثخنين بآثار العصي وعلائم الانكسار!

وكلما أملنا أن يكون السجّان مرجعاً لنا ، وحَكَماً بيننا ، كنّا نخيب خيبة البلهاء ونحن نرى إلى أنفسنا كيف استوينا لديه كأسنان المشط ، بمن فينا ذاك الذي ، من فزعه ، لاذ بدقّ الباب!

وسنلين حيناً ، ونضعف حيناً ، ونرتدع في مرات قليلة ، خصوصاً حين نفطن لأسنان المشط . .!! غير أن ذلك لم يكن يعني زوال المشكلات وتبدّد الخلافات ، وعدم هبوب أحدنا في وجه الآخر ، شاتماً ، ضارباً ، ومن دون أية حسابات كانت! إذ لبضعة سنتمترات من انزياح فراش على حساب فراش ملاصق يمكن أن يقوم الشجار . . لمكوث أطول في المرحاض . . لاستغراق في غسل الوجه من ماء البرميل الوحيد . . لغَرْفة أكبر من مخصص البرغل . . لتلكؤ البعض في التهيؤ للحمّام يؤدي إلى تأجيل دور مهجعنا أو إلغائه . . . . لأيٍّ من عشرات التفاصيل اليومية في عيشنا المشترك ، كان يمكن أن يحتدّ أحدنا ، فيلحق به

آخر ، وينتصر لهما ثالث ، فيعمّ الهياج ، وتتجدّد المشاحنات ، والخلافات التي تُراكم فينا المزيد من الحنق والغلّ المتبادل!

ولا ندري كيف بتنا في السجن على غير ما كنا عليه قبله! لا ندري ما الذي صيّرنا أشبه بأصابع متفجرات . شيء غامض وخفي انتزع عنّا جلودنا ، معرّياً أعصابنا ، بحيث أمسى أحدنا ينتظر ، وبفارغ الصبر ، أية كلمة ، أو حركة ، أو تصرّف من آخر ليقوم بدفع حمم غضبه المخزون عن آخرها!

وإنْ كانت خلافاتنا في الشؤون العديدة لم تخل ، رغم حدّتها ، من لمسات تسامح وتساهل ، نعود ، بعدها ، إلى ما كنا عليه من تآلف وتحابٍّ . . . فإنَّ ما لم نتهاون به قط ، أو نتنازل عنه إطلاقاً هو ما يتعلّق بحبّات بزار الزيتون!

فلا التوسُّطات ، في هذا الأمر ، ولا اشتراكنا في وضع مأساوي ، ولا حتى التذكير بالبداهات كان يجدي أو يحول دون أن تدبَّ الخلافات ، وتحتدم ، وتتوقّد نارها ، على نحو ما يحدث لرزق سُلب ، أو شرف أُهين ، أو حياة هُدِّدت ، إذ كنّا ندخل في معركة حقيقية ، نتبادل خلالها الضرب بالأيدي ، والرمي بالصحون والملاعق والطناجر والأحذية ، لكأن مصائرنا ، وما حلمنا به ، وما لأجله زُجَّ بنا ، سيتقرر في ساعة الجحيم تلك!

كانت البزار هي الاكتشاف الأبهى بالنسبة لنا!

فمنذ بهرنا السجناء القدامى بما يملكون منها ، تركنا جلّ

ما نقتل به الوقت من تسالي ، وانـهمكنا فـي جمعـها ، والموازنـة بينها ، وحفّ رؤوسها المسنّنة بأرض المهجع الإسـمنتية وجـدران باحة التنفّس ، بغية ضمّها بخيوط علـى هيئـة سبّحات وقلائـد وأساور وخواتم ، لنقدّمها في زياراتنا ، فنجنـي الدهشـة والغبطـة من عيون مَنْ نحب .

ولقد جهلنا أن ما اندفعنا إليه تزجيـة للوقـت ، سـيتملّكنا كهاجس مقيم ننشغل بـه عـن الكثير مما عـداه ، فننكـبُّ عليـه لوقت طويل من النهار ، ثم يتفنّن البعـض منّـا فيـبرع فـي تفريـغ لبِّ الحبّات والإبقاء على قشرتها الرقيقة كي يحفر برأس الإبـرة قلباً ، أو طيراً ، أو عيناً تكاد ، لسحرها ، تغمز لرائيها!

وإذ تحوّل مهجعنا إلى ورشة ، فلم يكن من منـاص فـي أن تختلط حبّةٌ بحبة ، أو تتشابه قلادةٌ مع قلادة أخرى ، أو يحـدث فيدّعـي أحدنـا ، ممـن غاظتـه رداءة شـغله ، أنـه صـاحب تلـك السـبّحة المتقنـة ، الأمـر الـذي يجـدّد المشـكلة ، ويؤجـج نـار المكائد ، ناسفاً مساعينا كلّها ، ومعيداً إيانا إلى نقطة الصفر!

ورغم ذلك ، رغم العذابات التي كابدناهـا ، والآلام التـي عانينا منها جراء إدمـاء أصابعنـا فـي الشـغل علـى البـذار ، بـل وبعض الإهانات التـي لحقـت بنـا وأسـدلت علـى حزننـا بؤسـاً موحشاً . . إلاّ أن أحداً لم يتخل عنها ، أو يضعف اهتمامـه بـها ، أو يتراخى حرصه الشديد عليها!

أَلأنَّ الواحد منّا ، حين يختلي بحبّاته إلى جدار ، أو يعطف بكلّيته على بقعة من الأرض ، منهمكاً مستغرقاً ، كان يجد فرصته الأثمن ، وملاذه الآمن ، كي ينبش دواخله ويفرشها ، فيسرّ ، ويبوح ، متسامراً مع أصدقائه وأحبائه الطلقاء ، يلعن ويأسى ويضحك ويدهش ويحزن على هواه ، من دون مكابرة أو خجل يضطر إليهما أمام الآخرين؟ وإلاّ . . فلِمَ ، لبضع حبّات تضيع ، أو لخاتم منها يختفي ، أو لظنٍ باختلاس وقع عليها ، كنّا نمتلئ بأعلى درجات الغضب ، وننددفع لخوض أشدّ المعارك بيننا ، ممّا لا يحدث لشأن آخر ، حتى لكأن تلك الحبّات لا تحمل دماء جهودنا فقط ، بل تكتنز بأسرارنا وأحوالنا وخفايانا الخاصة جداً!!

أياً كان . . . فإن أغرب ما حدث معنا على الإطلاق ، ووشمت وقائعه ذاكرتي وشماً ، قد تأخَّر لسنوات طوال حتى حلَّ في ذلك اليوم ، نحو العاشرة صباحاً ، حيث كنا منشغلين بإعداد الطعام ، فإذا بصوت السجّان يشقّ ، من خلف النافذة ، لغطَ مهجعنا ، آمراً مَنْ تُتلى أسماؤهم أن يقوموا بتوضيب أنفسهم بسرعة بغية إخلاء سبيلهم!

بعد هدأة الإصغاء للأمر ، قامت قيامتنا! انفلتنا بالضجيج دقيقة ، ثم سكنّا منقطعي الأنفاس ونحن نتلقّف اسماً ثلاثياً بعد اسم ، حتى إذا ما نبر معاوداً أمره للإسراع بتجهيز أنفسنا ، هبَّت

قيامتنا إلى قيامها من جديد ، مجبولة ، هذه المرة ، بصيحات الغبطة ، وصراخ الفرح ، وخبط الأقدام ، وصفق الأكفّ ، والنداءات والتوصيات التي راحت تخترق مهجعنا طولاً وعرضاً .

ورغم انني كنت ، مع سجناء آخرين ، من الذين لم تُتل أسماؤهم . . إلاّ أننا طفقنا نجاري المخلى سبيلهم ، فنقفز معهم ، ونرتبك كارتباكهم ، وننحني بانحنائهم ، أو نلوب ونتفقّد الأغراض على غرارهم ، حائرين في تدبّر أمرنا مثلهم تماماً!

ولعلني لا أستطيع أن أنسى ما حييت كيف راح المخلى سبيلهم ، بعد أن قذفوا بمناماتهم في فضاء المهجع ، يمدّون أصابع مرتجفة إلى ثيابهم المطويّة في الصناديق الخشبية المتراكبة فوق رفوف فرشهم ، فيسحبونها من سباتها الطويل ، وكيف راحت تنسحب معها وخلفها ثم تنهال ، تلك الحبّات المجهَّزة والمخبَّأة في حرز أمين ، والأخرى نصف المشغولة ، والقلائد المهيّأة ، والسبّحات المضمومة ، والأساور المنقوشة ، فتوقّع على أرض المهجع توقيعاً مكتوماً ، ثم تتناثر وتتبعثر هنا وهناك ، وسط تزاحم الأقدام وتقاطعها ، تكرٌّ ، وتدرج ، وتنزلق ، أو يتكسَّر بعضها ويتطاير ، دون أن يأبه بها أحدٌ ، أو تجد مَنْ يلتقطها أو يلتفت إليها ، بمن فينا أصحابها ، أولئك الذين اندفعوا ، وقد باتوا طلقاء الآن ، يعبرون باب المهجع المشرع ، خفافاً ، رشقاء ، توّاقين للوصول إلى الشوارع المشتهاة!

خلوة

فقط في هذه المرّة ، أثارني انسحابهما من الصالة ، ولفتني إليه لكأنه شهابٌ وَمَضَ فجأة وشقَّ ثوب الليل!

طوال الأيام ، بل والشهور الماضية ، لم يشغلني انسحاب أحمد ومنى ، ولا غيرهما من الطلاب ، إذ تعوَّدت على ذلك بسبب موعد لدى هذا مع المعالج الفيزيائي ، أو زيارة طارئة من أسرة ذاك ، أو حاجة ألحّت على آخر . . . بحيث بات يمكن لأيّ طالب أو طالبة الخروج من الصالة دون إذن منّي .

أما في المرّة الأخيرة هذه ، فلا أدري ما الذي انتابني! لكأن حركتهما نبشت الشكّ فيّ ، فتنبَّهت! تنبَّهت ، وقد غام مرآى الطلاب في عينيَّ ، ليتبدّى تواطؤهما سافراً جلياً : عزمتْ منى أولاً ، فأمسكت عجلتي مقعدها الدرّاج ، وراحت ، بهدوء بالغ ، تديرهما نحو الخلف ، باتجاه الباب ، منسلّة منه كما يُسلُّ الخيط من القماش . . . ثم تحرَّك أحمد ، فركّز عكازيه تحت إبطيه ، وشرع ، غبّ خروجها ، يحجل بهما نحو الباب حجلاً رشيقاً ، منساباً منه كنسمة .

غالبتُ وساوسي ، فغلبتني! حاولت أن أتابع مع الطلاب ما كنت أتحدّث عنه ، فانفرط الكلام منّي كحبّات سبّحة تقطّع خيطها من ألسنة نار شبّت فيّ وراحت تلسعني مهيّجة قلقي : «لِمَ خرجا؟! وما عساهما يفعلان!؟» .

ولم أنتظر . إذ قبل أن يتعرّى ارتباكي ، ندهتُ على طالبٍ ، فأنبته عني ، واندفعت ألحق بهما .

وفيما كنت أجوس المكان : في الباحة ، داخل الصفوف ، خلف الحمّامات ، بين الممرات... كان الشكّ يحدوني ويبلبلني بالريبة الوخّازة : «أين يختليان الآن؟! هل أباغتهما قبل أن يبدأا أم أقبض عليهما متلبّسين!؟ وكيف تراني غفلت عن خلواتهما الماضية كلّها!!» .

ووجدت نفسي أبحث هنا وهناك ، تحثّني عشرات الصور والوضعيات ، وتُسرّع من خطوي إلى أن أوقفني يقين داهم ودلّني : «في الغابة الصغيرة حتماً» ثم أكّد لي : «وهل من مكان أستر لفعلتهما سوى الغابة!؟» .

صدّقتُ الوشاية ، وانعطفت ، من فوري ، نحو حديقة المعهد القديمة ، تلك التي ألفنا تسميتها بـ«الغابة الصغيرة» لاتساعها وغزارة أشجارها وكثافة نباتاتها .

كانت الحديقة ساكنة سوى من لغط خفيف ، بعيد ، أنبأني بوجودهما ، فتسلّلت ، متتبّعاً اللغط ، حتى عثرت

عليهما . ولم يكن اصطيادهما صعباً ، إذ لمحتهما يقفان ، كغزالين فارّين ، وسط فسحة تتفرّع منها ممرات ترابية مرصوصة ، يشير أحمد بيده إلى اتجاهات عدة ، فيما تومئ له منى موافقة!

«ها هما يتدبّران أمرهما» قلت في نفسي ، ثم قرفصت خلف جذع شجرة ثخين ، غاطساً في صمت مطبق ، متلصصاً عليهما من خلل الأشجار وفرجات النباتات .

صفعني ما رأيت!

فكل الهواجس والصور التي انتابتني وتزاحمت في مخيلتي كانت ممكنة ومحتملة إلاّ ما شاهدته وسمعته من حركات وأصوات كانت تصلني ممتزجة بالخضرة وحفيف الأوراق :

«منى ، لا تحتالي! في المرة الماضية بدأتِ أنتِ . هذه المرة دوري أنا بالأول» سمعتُ أحمد يقول وهو يتراجع بعكازيه كمن يهدّد بالانسحاب . ردّت منى «يا سيدي لا تزعل . دورك أولاً» .

اقترب منها ، أسند إحدى عكازيه إلى مقعدها ، ثم حجل على الأخرى ، حتى صار خلف شتلات للزهور . ناداها : «تطلّعي» . وأخذ يسوّي وضعية قدميه والجهاز المعدني ، ثم طفق ، بعزم ، يطوّح ساقيه من فوق الشتلات متبادلاً وعكازه القفزة بعد القفزة من دون أن يمسّ الشتلات أو ذؤابات الأزهار ، عاداً بصوت خافق : «واحد . . اثنان . .

ثلاثة . . أربعة . .» ومع الرقم السابع توقّف ليرسل ، وسط وجه مخضّب متعرّق ، نظرة مباهاة فخورة : «شفت!» .

«إي شفت . هذه بسيطة . تفرّج أنت!» ردّتْ منى بلامبالاة مغناج متصنّعة ، ودفعت بعجلات مقعدها حتى صارت في بداية ممرّ ترابي . ناولته العكّاز ، وطلبت منه : «عدّ لي» ، ومع الأرقام الثلاثة الحافزة ، رفعت منى يداً في الهواء ، ولفّت أصابع الأخرى على إطار عجلتها ، ثم جعلت تدفعها بقوة وهي تثني جذعها إلى الأمام والخلف ثنياً متتالياً . . . بيد أن المقعد دار في مكانه ، على محوره ، وخيّبها . وقبل أن يشمت أحمد بها ، حاولت ثانية ، لكن الخيبة عاودتها ، فخبطت على المسند يائسة ، فيما سارع أحمد نحوها يواسيها : «بسبب الأرض . . بسبب الأرض هذه المرة» تفضحه ضحكات بدت كالصهيل .

«طبعاً بسبب الأرض» قالت منى بنبرة تحد وأضافت : «انظر ما سأفعل!» حاول الاعتراض على خرقها الدور ، فلم تأبه ، بل عاجلت إلى زحزحة مقعدها ، ثم دفعته بكلتا يديها على الممر صائحة : «أحمد . . أحمد . .» حتى إذا ما وصلت منتصف الممر ، ضغطت المسند بظهرها ، فارتفعت العجلتان الصغيرتان الأماميتان في الهواء ، وتراقصتا للحظات كفراشتين ، فانذهل أحمد وهنّأها بخبطات من عكازه على الأرض : «برافو . . . ولا أحلى يا منى . . ولا أحلى» .

ويبدو أن الحميّة أخذته ، فرفع عكازيه الاثنتين ، وشرع يرقّصهما هازّاً خصره ، فما لبثت ، وقد أسعدها فرحه بها ، أن انطلقت في ترديد أغنية راقصة والتوقيع بكفّيها . . لكن المشهد لم يدم سوى دقيقة أو بضع دقيقة ، إذ تعثّر أحمد ، وسقط أرضاً ، لتهرع منى إليه مرطّبة خاطره : «بسبب الأرض يا أحمد . . بسبب الأرض» وهي تغالب ضحكات موشّاة بانتقام ودود!

* * *

ما من خيبة غصصتُ بمرارتها كالخيبة التي هاجمتني تلك اللحظة وتفشّت في كياني ، إذ بدوت لنفسي ، وأنا مقرفص أسفل ساق الشجرة ، كقنفذ تكوّر على نفسه من الذعر!

نهضتُ ناوياً العودة إلى الطلاب في الصالة ، وقد شعرت بخواء وجودي هنا . . بيد أن نداء منى شدّني وسمّرني وهي تهتف لأحمد : «طيب . . تعال لأريك شيئاً لم ترَ مثله في حياتك» ومن الغريب أن ردّ أحمد على الفور كأنه كان ينتظر ذلك الاقتراح : «يا ستي . . وأنا عندي لك مفاجأة . . . امشي!» .

لم أستطع أن أرى ، ولا تمكّنت من المكوث . فما إن ناول أحمد عكازيه لمنى ، وضمّتهما إلى صدرها كطفلين وليدين ،

حتى جعل يدفع مقعدها بهمة ونشاط ، حاجلاً خلفه ، ومنعطفاً إلى ممرّ فرعي يفضي إلى مكان وقوفي!

ارتبكتُ لبرهة ، وحرت فيما أفعل . لكأنهما كانا يبحثان عنّي ، وكنت أسعى للتواري عنهما كي لا يقبضا عليّ متلبّساً! إذ ما إن درجا بضع خطوات ، حتى هرولتُ هارباً من بين الأشجار ، وقد راحت تهطل فيّ أحاسيس غامضة ، مشوّشة ، لم استطع تبيّنها قط!؟

البيت ذو المدخل الواطئ

رغم وابل الشتائم واللعنات التي كان يدفعني الألم للتفنّن في تركيبها ، وإطلاقها على نفسي ، آملاً أن تتيقّظ من غفلتها في المرات التالية . . . إلا أنها لم ترتدع قطّ! كرَّة أخرى كنت أسهو ، أو يستغرقني شاغل ، فلا أتنبَّه إلاّ بعد أن يرتطم رأسي بالعارضة الحجرية الواطئة التي تعلو مدخل الدار القاطن فيها ، ويكتوي بألم ناريٍ حارق!

صدمة خاطفة ، كتيمة الصوت ، في أعلى جبيني ، ترجُّني ، وتلفّني بالدوار ، فأتّكئ من فوري على الجدار خوف السقوط ، مدلّكاً رأسي ، ومغالباً وجعي إلى أن تختفي النجوم التي شعَّتْ في عينيَّ وتعود إليَّ سكينتي .

وفي معظم المرات ، كنت أتريَّث ، بُعيد اللطمة ، متراجعاً خطوات قليلة ، لأتفحَّص المدخل وأتملّى فيه ، باحثاً عن منجى ، متفكّراً في حلٍّ ما ، فتركبني الحيرة من أمره وأمري ، إذ لا أنا بقادرٍ على تغيير بنائه ، ولا بمتمكّن من التآلف مع انخفاضه ، والتعوّد عليه ، فلا أملك ، من عجزي ، إلاّ أن أشتم

بانيه : «أي مسخٍ ، خنزير ، ذاك الذي بنى المدخل على هذا النحو الصالح لعبور الدواب!!» أو أسبّ نفسي ، تشفّياً من غفلتي : «وأية دابة غبية أنت حتى لم تعتد إلى الآن على المدخل فتنحني وتخفض رأسك بما يكفي للعبور بسلامة؟!» .

ولا يحدث ذلك على الدوام طبعاً . . بيد أنه ، حين يقع ، ينبش فيَّ حالَ الدار التعيسة ومدخلها الغريب وضعفَ تنبّهي الذي لم أجد في سواه مخرجاً من ورطتي ، فجعلتُ ، بطرائق شتى وحيلٍ كثيرة ، أوجّه نفسي ، أُدرّبها ، وأسوسُها إلى أن طاعت واعتادت المحاذرةَ ، فما بتُّ أرتطم إلا نادراً ، نادراً جداً ، حين يخطر لي ، بُعيد خروجي بلحظة ، غرض نسيته ، فألتفتُ قافلاً . . . أو يُقلقني التأخّر عن موعد ، فأخرج متلهوجاً .

عدا ذلك ، فقد سوّيتُ المشكلة تماماً ، خصوصاً وانني أضفت ، إلى تيقُّظي ، حذرَ الكفيف ، بأن شرعتُ قبيل المدخل ، أرفع ذراعي ، مقدّماً كفّي ، حتى إذا ما لامست العارضة ، طأطأتُ منحنياً ، ودلفت بخفّة حملٍ ، ورشاقةَ بهلوان .

ومع الأيام ، امّحت تلك اللطخة البنّية المسودّة التي خلّفتها ارتطامات الماضي في مقدمة رأسي ، وغمرتني غبطة لا حدّ لبهجتها من حال تكيّفي مع المدخل ، وتحوّطي الفطين له ، لكأنما ولدت وترعرت تحته ، فطربت لخلاصي وانتشيت ، وإنْ

عكَّرني خاطر داهم عمّا إذا كان حالي الجديد هو جراء شتائمي وتعنيفي لنفسي . . أم انه الخوف يفرِّخ في المرء رعباً جسيماً ، يحوط به نفسَه ، فتراها تطوع وتتكيَّف بأكثر من اللازم؟!

أياً كان . . فسكناي الطويل الذي عوّدني ، لم يفعل ذلك مع زوّاري وأصدقائي بالطبع! إذ غالباً ما كانوا يرتطمون ، ويبدؤون زياراتهم باحتجاجات صريحة على مسكني البائس ، غير المعقول ، مطالبين بأن أجد حلاً ما ، فلا أجد غير الاعتذار منهم ، ومراضاتهم ، وروايةِ ظروفي على نحو جديد ، مثير ، علّهم ينشغلون بالتفاصيل ، وينسون رضوض رؤوسهم!!

لم يفتني ، حتماً ، تغليف العارضة بقطعة اسفنج سميكة ، ألصقتها على امتدادها ، بيد أن شدَّ الأيادي عليها أوهنها ، ثم هرَّأها وهلهلها ، فما كنت أفطن لترميمها أو استبدالها ، إلاّ بعد لومٍ عتوب أتدارى عن صاحبه بالمسارعة إلى تغييرها بأخرى جديدة!

حين قيَّضت لي الظروف أن أنتقل من داري القديمة ، إلى مسكن جديد ، غدوت مضحكة أمام نفسي!

فرغم ارتفاع الباب ارتفاعاً طبيعياً ، انتبهت إلى أنني ما زلت أنحني وأخفض رأسي ، عند الدخول والخروج ، في حركة محاذرة بدت لي ، هنا ، خرقاء تماماً! بل وكثيراً ما حدث -في

الليل خاصة- أن رفعت ذراعي ، مقدِّماً كفي ، لتلمُّسِ العارضة . . فكانت تهوي في الفراغ الشامت!

«العمى!!» قلت لنفسي «أما انتهينا؟!» وقد راحت تتلامح ظلال معاناتي الطويلة . ثم دأبت ، من جديد ، لا على التفطُّن إلى ضرورة المحاذرة ، بل على كنسها وإزالة آثارها مني ، فما تمكّنتُ إلا بعد أن فضحتني بين أصدقائي ومعارفي ، أيام كنت أزورهم ، وأتعثر بمداراتي ، على نحوٍ ظاهر ، فيغرقون بالضحك مني والتندّر عليَّ ، معاودين الحاحهم : «انسَ يا رجل! انسَ!» فتفترش تفاصيلُ الماضي ذاكرتي ، وقد تخلَّفت على وجهي ابتسامة صفراء ، باهتة ، من الأسى!

وبكثير من العزم ، والتحوّط ، إلى توالي الزمن ، استطعتُ محو عادتي تلك . ذبلتْ ، وضمرت ، إلى أن تلاشت . نسيها الجميع ، بل وكدت أنساها ، أنا نفسي ، لولا أن بوغتُّ بأن بلائي ما زال فيَّ ، لم يغادرني قطّ ، وإنما غار ، كالمياه ، في أعماقي ، وتغلغل في شعابها القصيَّة!

وما عثرتُ ، بعد ذلك ، على سبيل للتخلّص أو النجاء من لعنتي المقيمة . فلقد توارى حذري عن عيون الآخرين ، وعن عينيّ أيضاً ، فلم يعد أحدٌ يلمحه أو يُلمح إليه . . . بيد انني أشعر به دفيناً ، متلطّياً ، يتلفني تحفّزه ، إذ ما وصلتُ منزلاً ، أو اقتربت من مدخل ، إلاّ وبغتني نداء قصيّ . . فأجفلني! وما

هممت بالخروج مرة ، إلاّ وانبثقتْ حركتي المحاذرةُ تلك ، شاقّةً عتم ذاكرتي ، كحوت ، فأرعبتني! لبرهة يحدث ذلك ، أو لنثرة من برهة . . . لكنني ، وأنا أزجرها كي لا تظهر ، أغصُّ بأنفاسي وأرتعد ، إذ يتراءى لي ذلك البيت ذو المدخل الواطئ الذي قطنتُ فيه مرحلة من حياتي ، فأحاق بي ، وسكنني ، متلبّساً إياي كمسٍّ ، لا براء منه ، ولا خلاص!

القصص

خواء ٧
شريط الورق ١٥
تلمُّس ٢٣
قلاع صغيرة ٣٥
كفاصلة وسط الكلام ٣٩
وشم ٤٧
عن أمي ٥٥
طيور ٦٣
صرير الندم ٧١
تلك الحبات ٨١
خلوة ٨٩
البيت ذو المدخل الواطئ ٩٧

المنزل ذو المدخل الواطئ

تتمثّل براعة القاصّ في اختيار اللحظات المثقلة الّتي تتكثّف فيها كلّ أبعاد التجربة ، فكأنّها بلّورة صغيرة تعكس صورة العالم الكبير ، أو « عيّنة نموذجيّة » كما يقول أصحاب علم النفس ، لأشواق صاحبها وتوقه المشروع للاتّصال بالعالم الّذي حرم منه قهراً وقسراً ، بما فيه من ضوء وأحبّة وحريّة (..) ، وثمّة إحكام في المراوحة بين الواقع المعيش من ناحية ، وذكريات الحريّة ومستدعياتها من الناحية الأخرى ، إلى جانب الاقتصاد في العبارة ، والحساسيّة المرهفة في انتقاء الألفاظ الّتي تفجّر الدلالة في الحدث الصغير ، فتوسّع من آفاقه ، وترتفع به لمستوىً أكثر إنسانيّة وشمولاً ، وتؤكّد الثقة بالإنسان ، وجوانب الخير فيه ، الّتي لا تقوى الجدران والحياة القاسية على حجبها .

وجه الامتياز أن ينجح القاصّ في « تفنين » تلك الخبرات المعذّبة ، وصياغتها على هذا النحو المندّى بالفهم والتعاطف .

وراء أعمال إبراهيم صموئيل يمتدّ ظلّ يوسف إدريس ، فمن الواضح أنّه قارئ محبّ لمعلّم القصّة القصيرة الراحل ، متأثّر به .. لكن هذا هو التأثّر الصحيّ ، لو صحّ التعبير : أن يتمثّل الخبرة الّتي قدّمها يوسف ، ثمّ يعمل على تجاوزها ، وهذا ما تحقّق في عدد كبير من قصصه .

فاروق عبد القادر

من كتابه « نفق معتم ومصابيح قليلة »

دار الحكمة ذ.م.م.
DAR AL HIKMA L.L.C.
TEL: 2665394 DUBAI
DH 20-00
204317